المنتخب من مدوّنات التراث

عزيز العظمة

محمّد بن عبد الوهاب



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

عزيـز العظمـة

محمد بن عبد الوهاب

المنتخب من مدوّنات التراث

عزيز العظمة

محمد بن عبد الوهاب



MOHAMMED BIN ABDEL-WAHHAB

BY:

AZIZ AL-AZMEH

First Published in February 2000

BEIRUT - LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data Available

ISBN 1 85513 421 7

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: شباط/فبراير ٢٠٠٠

المحتويات

القسم الثالث
المستفاد من سيرة الرسول

القسم الرابع
ملاحق

المقدمة

ثمة مفارقات وانخلاعات زمانية وتقويمية عدّة متضمّنة في مطالعتنا كتابات الشيخ محمد بن عبد الوهاب في ختام العشرين. فهو رجل كتب ونشط سياسياً في عصر ضربت فيه الحداثة فكراً وتصوراً، وبدأت تعتمل فيه سياسياً واجتماعياً: عصر الثورة الفرنسية وما تلاها من تحديث في أوروبا وأميركا اللاتينية، ومن بوادر التحديث المتبعثرة في ديار الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثالث وما تلاه. وهو، ولئن انتمى الى هذا العصر تبعاً للتقويم، إلاّ أنه انتمى الى عالم عقلي آخر، عالم ضبطته معارف دينية بسيطة وجلفة، وما زالت تكوّن نظرته إلى الكون مفاهيم قرآنية أخذت بمعناها الحرفي وغلب على أخذها هاجس الفعل الرباني، وكمّلتها بعض المعارف العلمية العائدة للعصر الوسيط، ككتاب المجسطي لبطليموس الذي درسه ابن عبد الوهاب في البصرة، والآلات المتقادمة كالاصطرلاب، في وقت كانت فيه الثورة العلمية قد تأسست على صورة ثابتة مستمرة دونما إمكانية الارتداد.

لا شك في أن لهذا الفوات مسببات، ليس أقلها كون نجد وغيرها مناطق طرفية في منطقة كادت أن تصبح طرفية هي الدولة العثمانية، وتلك سمة طرفية طبعت مناطق عدة في قلب أوروبا ذاتها. وقد كان لجدل المركز المتوسع والأطراف الجاري التوسع على حسابها ـ تجارياً على سبيل المثال لا الحصر ـ أن أدّى إلى حركات ارتدادية محلية مدافعة عن القديم، مرتبة لشأن البيت الداخلي في سياق المتجدّد، وهذا شأن حصل في نجد، ولاحقاً في ليبيا (السنوسية) والسودان (المهديّة) وغرب أفريقيا وشمالها (التجانيّة وحركة عثمان دان فوديو) وفي الأطراف الشمالية الغربية من الهند، إن شئنا أن نذكر الحركات ذات الإيحاء الديني الإسلامي دون غيرها ممّا ناظرها سياسياً واجتماعياً[1].

ليس هذا محلّ الكلام حول اجتماعيات هذه الحركات، ولكن كان لا بد من الإشارة إلى ان ما يوسم بالنهضة شأن لا يمكن التوقف على عبارته الدينية والإيديولوجية التي تكون مناط كلامنا في

(١) نحيل القارىء على: وضاح شرارة، الأهل والغنيمة. مقومات السياسة في المملكة العربية السعودية، بيروت، ١٩٨١.

هذه المقدّمة. ثم إنه ليس بالكافي استخدام عبارة النهضة في سياقات قد تكون مألوفة، إلاّ أنها غير مناسبة: فالنهوض الذي وسم الوهابية ونظائرها نهوض محلي، واستجماع داخلي لقوى غير متناظرة مع النهوض بمعناه العام، إذ إنها نهضة ارتدادية وليست بالنهضة المنفتحة على المستقبل وعلى الترقي والتقدم إلاّ بمعاني محدودة بالغة الضيق والمحلية. ولكن إحدى المفارقات التي أشرنا إليها في افتتاح هذه الفقرات تكمن في الأثر الكبير والبعيد الذي صنعته هذه النهضة الارتدادية في تاريخ العرب والمسلمين الحديث والمعاصر. وهذا شأن يؤدي بنا إلى الكلام على العالم العقلي لمحمد بن عبد الوهاب.

ولكن يتحتم علينا قبل ذلك أن نشير إلى شأن هو بديهي ـ من وجهة نظر العقل التاريخي ـ بقدر ما هو منسيّ عملياً. أما الشأن البديهي هذا، فهو أن لتاريخ الحركة الوهابية مساراً متعرجاً، وأن الحركة هذه لم تنجح أخيراً لأن النجاح كان مكتوباً لها في اللوح المحفوظ بل لأن التاريخ وظروفه قد يسّرت لها سبل هذا النجاح وكلّلته بشخصية تاريخية استثنائية هي عبد العزيز بن سعود مؤسس مملكة الحجاز ونجد وتالياً المملكة العربية السعودية. لم يكن نجاح الحركة مضموناً، بل لم تكن مواقف ابن عبد الوهاب من الشؤون التي جلبت رضا جيرانه، وليس من الحكمة أن نصور أواخر القرن الثامن عشر في مرآة القرن العشرين. استغرب معاصرو ابن عبد الوهاب أفكاره واستنكروا مواقفه، واجدين في تعصبها وحصريتها وتزمتها صورة عن حركة الخوارج لا عبارة عن «الإسلام الحقّ»[٢]. وقد انعكست هذه المواقف، وخصوصاً العثمانية منها، على التأريخ لها، ولهذا فقد آثرنا في ملحق هذا الكتاب إثبات نص معاصر، مغفل المؤلف، لحياة ابن عبد الوهاب والتاريخ المبكر للحركة الوهابية، وهو نص وسطي وليس سجالياً يعكس بيئة ابن عبد الوهاب[٣] وزمانه وعامية ذلك الوقت ولحنه بالعربية، وفضلنا هذا على النصوص العدائية منها والمناقبية (مثل كتابات المؤرخين الوهابيين كابن بشر وابن غنّام)، ولو أننا أدرجنا نصين وهابيين في الملحق يتممان النصوص المثبتة لابن عبد الوهاب نفسه.

نعود إلى العالم العقلي لمحمد بن عبد الوهاب ونقول إن فكره قد دار حول فكرة توحيد الألوهة ويتبنى به انبناءً تاماً. فالتوحيد عنده إيلاء القدرة والسلطة والمرجعية حصراً لله وحده، وقد وصف أدونيس ذلك في مقدمته لنصوصه الوهابية المختارة[٤] وصفاً بالغ الحساسية. والله متفرّد بالتدبير والخلق والأرزاق، وفي إثبات قدرته الحصرية نفي لقدرة أي مخلوق. يترتب ذلك منطقياً ـ وإن كان الترتب السوسيولوجي جارياً في الوجهة المعاكسة، فإن مبتدأ التوحيد نفي قدرة المخلوق في

---

(٢) مثلاً: محمد شكري الألوسي، تاريخ نجد، تحقيق محمد بهجت الأثري، القاهرة ١٩٢٤، ص ٥٠ وما يليها ومن أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، تحقيق مصطفى غالب، مغفل مكان النشر، ١٩٧٥، ص ٩٧.

(٣) سبق وأن نشر أدونيس وخالدة سعيد مجموعة من كتابات محمد بن عبد الوهاب في إطار سلسلة تحت عنوان «ديوان النهضة» لدى دار العلم للملايين في بيروت عام ١٩٨٣.

(٤) المصدر نفسه.

عملية يضارع فيها نفي فاعلية الجن والتمائم والأولياء والصالحين، ومنهم في الأحساء واليمامة من معاصري محمد بن عبد الوهاب رجلان لا نعرف عنهما إلاّ الاسمين: شمسان ويوسف، فاعلية الديانات المحلية غير الخاضعة لمركزة وتوسّع الدولة السعودية ـ تأكيد المرجعية الحصرية الواحدة، وهي مرجعية الله وحاكميته (والحاكمية عبارة لم يستخدمها ابن عبد الوهاب، بل استقاها من فكره أبو الأعلى المودودي ونشرها في ديارنا العربية سيد قطب وأتباعه إيديولوجياً وسياسياً) في شؤون تنظيم الحياة الدنيا كما في شؤون الكون عموماً، ونفي الفاعلية عن غيره، بشراً كانوا أم جنّاً أم نجوماً أم تمائم.

ولما رأى ابن عبد الوهاب أن كل إيلاء للفاعلية عبادة، كان الأخذ بعلّية الطبيعة أو البشر شركاً، أي إشراكاً لغير الله فيما يخصّه وحده دون سواه. ذلك أن كون محمد عبد الوهاب كونٌ تنظمه قوّة ماورائية واحدة، ومذهبه مذهب عبادة للقدرة، أي عبادة لسلطان واحد، تتسلسل بلاغاً في سلسلة الأنبياء الذين يفعلون بقدرة مستقاة من الواحد، كعمل الرسول على شفاء عين معتلّة لأحدهم بالبصق فيها، وكاجتراح غيره من الأنبياء المعجزات من انقلاب العصي أفاعي والنار برداً وسلاماً وغير ذلك مما هو مدون في القرآن.

والحال أن معالجة ابن عبد الوهاب للمسائل الكلامية المترتبة على موقفه ـ كالقدر والصفات الإلهية ـ معالجة يمكن أن توسم بالبدائية والفقر وقلّة الاطلاع؛ وهي وإن قورنت بكتابات حنبلي كبير مؤثر في فكر الشيخ كابن تيمية، تبدو وكأنها تمارين كتابية تعكس بيئة هامشية بعيدة عن التمدّن ومنقطعة عن التراث الفكري للإسلام. وعلى ذلك فإن نبذ ابن عبد الوهاب لتراث الإسلام الفكري والفقهي باسم الاجتهاد والاحتكام المباشر للنص تحصيل للحاصل، وممارسة صارمة لنظرة لا ترى في التاريخ إلاّ مروراً تراجعياً للزمان، دونما فاعلية نوعية، بالمقارنة مع زمان تأسيسي واحد هو زمان النبوّة. تصبح النهضة ويصبح الإصلاح هنا ارتكاساً إلى هذا الزمن التأسيسي المتحول إلى يوتوبيا، وتنفى الصفة النوعية للتحوّل، ويصار النظر إلى اليوم بالإشارة إلى الأمس وبالإشارة إلى الانتقاص عن هذا الأمس، بحيث يصبح الزمن التأسيسي، والزمن الراهن، كنايتين الواحدة عن الأخرى، وفي هذا العنصر البنوي المؤسس لكل خطاب أصولي. فشرك الجاهلية ماثل اليوم، وطاغوت الجاهلية ماثل ومشخّص، وتلك أيضاً حال الردّة والهجرة ومثالب البداوة، وكل ذلك يسوغ النقل الحرفي المتخشّب لممارسات النبوة ـ وهي ممارسات مختارة وانتقائية ـ كالأكل باليمين وإسبال الثياب التي اعتبر ابن عبد الوهاب من لم يمارسها مرتداً كافراً يجب قتاله، كما قاتل النبي بني حنيفة وغيرهم، وإن كانوا أهل قبلة وإن أسلموا وشهدوا بأن لا إله إلاّ الله.

ما كانت تلك التصورات ممكنة لولا أن الزمان يُختصر إلى مستمر نوعي عنوانه النبوة وتاريخها، وهو تاريخ ذو طابع أسطوري واضح كما سيلحظ القارىء اللبيب، يماثل التواريخ التماثلية في جل الأديان وخصوصاً التوحيدية منها. فما أوائل التاريخ إلاّ نماذج تستنسخ، وما النهضة والإصلاح إلاّ ارتكاساً من الحاضر إلى الأوائل واستعادة لها واستئنافاً، إذ إن التاريخ تاريخ الإسلام حصراً، وكل الأنبياء على دين الإسلام، وما الارتداد إلاّ من رجس الشيطان ووسوسته، وما الإصلاح إلاّ عودة

للبراءة الأصلية هذه التي أعطانا الله إياها وأعطاها لأمم لا نعرفها لأنها غير مذكورة في القرآن - المصدر الحصري للمعرفة في فضاء ثقافي أميّ.

ولما كان القرآن - وبعض الحديث - المصدر الحصري للمعرفة، أضحى نص ابن عبد الوهاب في ظاهره نصاً لا صوت للمؤلف فيه. فالحقيقة معطاة سلفاً، وما على المؤلف إلاّ أن يورد النصوص ويردفها ببعض الشروح المسماة «مسائل» - دونما اعتبار لمعنى هذه العبارة في التراث الإسلامي. يضحي النص الوهابي بذلك استشهاداً بالنصوص، محاطة بشروح سمتها الأساسية الصمت، وعدم استخراج المعاني، واعتبار الحق قائماً منذ الأزل، والمؤلف مسجلاً لهذا الحق دون تدخل في قوله ودونما إضافة. ذلك أن الإضافة والتحرّي إشراك للإنسان في البلاغ، وما البلاغ إلاّ سمة نبوية بعناية ربانيّة تضمن هذا الحقّ. وإن قارن القارىء العبارة عن الموقف المماثل في بنيته في أعمال ابن تيميّة، تبيّن له كيف تخثّر الفكر الإسلامي في نجد القرن الثامن عشر، وكيف انقطع عن عناصر الحيوية في تاريخ الإسلام.

الأكيد أن تراثنا شهد انقطاعاً أكيداً في القرن التاسع عشر، انقطاعاً وسمته الحداثة وإرهاصاتها. ودون الدخول في شأن مسألة «الانحطاط» وما إذا كان للفكر العربي - والفكر الإسلامي في ديار العرب - أن يتقدم بعد القرن الرابع عشر (وتلك مقولة لها الكثير من المصداقية، ودون أن تعني المصداقية العامة هذه الحسم في التفاصيل التأريخية)، فإن علينا أن نقرر بأن الانقطاع هذا تم، وأن المرجعيات تبدلت، وليس ثمة شك في هذا السياق بأن الفكر الأصولي والسلفي منقطع عن الفكر الإسلامي التقليدي، بمعنى التزام رمزي بما فيه من معان حرفية دون الخوض في مسائله وطرائقه البحثية وما تراكم من معارفه. ذلك أن الانقطاع سمة هيكليّة، ولو كانت متفاوتة الفعل، وهي سمة هيكلية تأتّت عن تآكل البنى العقلية التقليدية من جهة، وعدم مطابقتها للوقائع التاريخية المتجدّدة من جهة أخرى. ولكن ثمة مستمرات للانقطاع، وحيوات مستمرة لأنماط من الفكر فقد حيويته وفاعليته، وانكفأ على مبادىء مبتسرة له.

لا شك أن من مستمرّات هذا الانقطاع، هذه الحياة التي لا حياة فيها، ذلك الترداد الطقسي لمقالات ومواقف انسلّت الحياة منها، هو الفكر الأصولي الذي يمثل فكر ابن عبد الوهاب المحطة الأولى له - وهي محطّة منقطعة زمانياً عن ماضيها، خلا الرباط الرمزي واللفظي - كما هي منقطعة كونها طرفيّة. وكان السيد محمد رشيد رضا قد أطلق في هذا الفكر الموميائي طاقة سياسية وفكرية مستفادة من التراث الإسلامي الذي فقهه فقهاً جيّداً، ورمى به في خضم حركة سياسية هي حركة الإخوان المسلمين، مما طوّر - استناداً إلى استمرار ما كان له - من عناصره الإيديولوجية والخطابية بإفادته بعناصر إيديولوجية مستمدة من الأوضاع المعاصرة وغير المنقطعة مع الحاضر انقطاعاً كلياً. ولكن هذا الفكر اختط لنفسه مسارات أخرى، في المنطقة الطرفية - جزيرة العرب - التي نشأ فيها، واستمر فيها على انغلاقه وانكفائه. وعلى ذلك فمن غير المستغرب أن ينهض، في العام ١٩٧٩، جهيمان بن محمد بن سيف العتيبي، وأن يغلق دائرة التاريخ على نفسه بإعادة نفسه وأعضاء حركته من طلبة العلم الوهابيين إلى بداية تاريخ النبوة، بقيادة حركة مهدوية احتلت الحرم المكي وابتدأت بالإعداد

للقيامة. والحال أن التناظرات بين حرفية ابن عبد الوهاب وحرفية جهيمان بن محمد العتيبي بيّنة. فقد استعاد جهيمان بحسم الفهم الوهابي للتوحيد على أنه نبذ الاختلاف والغيرية[٥]، وترجمته السياسية على أنها ممارسة توسعية للموحدين القائمين بالحق الإلهي بإقامتهم نظاماً سياسياً ـ على شاكلة ما ورد في الحديث ـ يمهّد الأمور للقيامة، ولاستعادة البراءة الأصلية استعادة كليّة. والحال أن استعادة البراءة الأصلية، وجعل الحياتين الاجتماعية والسياسية «عبادات اجتماعية» في عبارة الشيخ الراحل محمد الغزالي، والعمل على استحالة الحياة الدنيا إلى يوتوبيا البدايات النبوية والصحابية، تكوّن لبّ الإيديولوجيات الإسلامية والممارسة الدينية للسياسة ـ بغضّ النظر عن عبارات مستحدثة كالمجتمع المدني والديموقراطية وغيرها. ههنا الأثر البعيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، فهو يصور لنا على وجه بالغ الصفاء لب الإيديولوجية الإسلامية وبنيتها الأساسية، وليس من داعٍ لقراءته في ختام القرن العشرين إلاّ هكذا.

(٥) يراجع: جهيمان بن محمد العتيبي، دعوة الإخوان: كيف بدأت وإلى أين تسير، د.ت.، د.ن، ص ٣٢ ـ ٣٣، والإمامة والبيعة والطاعة، د.ت.، د.ن، ص ٢٨، والفتن وأخبار المهدي والدجال ونزول عيسى بن مريم وأشراط الساعة، د.ت.، د.ن.

ثبت المصادر

استقيت النصوص المثبتة في هذا الكتاب من مظانها في التالي:

محمد بن عبد الوهاب، **مجموعة التوحيد**، بعناية السيد محمد رشيد رضا، القاهرة، دار المنار، ١٣٤٦هـ.

محمد بن عبد الوهاب، **كتاب التوحيد ـ في مجموعة التوحيد**.

محمد بن عبد الوهاب، **كتاب كشف الشبهات ـ في مجموعة التوحيد**.

محمد بن عبد الوهاب، **بضع رسائل ـ في مجموعة التوحيد**.

محمد بن عبد الوهاب، **مختصر سيرة الرسول**، تحقيق هناء ماجد جزماتي، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.

محمد بن عبد الوهاب، **كتاب أصول الإيمان**، تحقيق اسماعيل بن محمد الأنصاري، الرياض، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

القسم الأول

العقائد الحقّة

١

أصول الدين[*]

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب إمام الدعوة الإسلامية، وحامي حمى الملة الحنيفة:

من أعجب العجائب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب، ستة أصول بيّنها الله تعالى بياناً واضحاً للعوام فوق ما يظن الظانون ثم بعد هذا غلط فيها أذكياء العالم وعقلاء بني آدم، إلا أقل القليل.

الأصل الأول إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الذي هو الشرك بالله. وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة. ثم صار على أكثر الأمة ما صار، أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين وأتباعهم.

الأصل الثاني أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق، فبين الله هذا بياناً شافياً تفهمه العوام، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرق فيه. ويزيده وضوحاً ما وردت به السنة من العجب العجاب في ذلك، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين، وصار الأمر بالاجتماع لا يقوله إلا زنديق أو مجنون.

(*) كتاب التوحيد، ٢ - ١٢.

الأصل الثالث أن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبداً حبشياً. فبين النبي ﷺ هذا بياناً شائعاً ذائعاً بكل وجه من أنواع البيان شرعاً وقدراً. ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به؟

الأصل الرابع بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء، وبيان من تشبه بهم وليس منهم. وقد بين الله تعالى هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ - إلى قوله قبل ذكر ابراهيم عليه السلام - ﴿يا بني إسرائيل﴾ الآية. ويزيده وضوحاً ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البين الواضح للعامي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم.

الأصل الخامس بيان الله سبحانه لأولياء الله وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله والمنافقين والفجار. ويكفي في هذا آية في آل عمران وهي قوله ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ الآية، وآية في المائدة وهي قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ الآية، وآية في يونس وهي قوله ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾. ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل، ومن تبعهم فليس منهم؛ يا ربنا نسألك العفو والعافية إنك سميع الدعاء.

الأصل السادس رد السنة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة، واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وهي أي السنة التي وضعها الشيطان هي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر. فإن لم يكن الإنسان كذلك فليعرض عنهما فرضاً حتماً لا شك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون لأجل صعوبتهما.

سبحان الله وبحمده والأمر برد هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى أمر الضروريات العامة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين

أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

٢

في التوحيد(*)

وقول الله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، وقوله ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ الآية، وقوله ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾ الآية، وقوله ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ الآية، وقوله ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا﴾ الآية.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ - إلى قوله - ﴿وأن هذا صراطي مستقيما﴾ الآية. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟». فقلت: الله ورسوله أعلم. قال «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً». فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال «لا تبشرهم فيتكلوا»؛ أخرجاه في الصحيحين.

فيه مسائل: الأولى الحكمة في خلق الجن والإنس؛ الثانية أن العبادة هي التوحيد؛ الثالثة أن من لم يأت به لم يعبد الله، ففيه معنى قوله: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾؛ الرابعة الحكمة في إرسال الرسل؛ الخامسة أن الرسالة عمت كل أمة؛ السادسة أن دين الأنبياء واحد؛ السابعة المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت، ففيه معنى

(*) كتاب التوحيد، ٢ - ١٢.

قوله: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله﴾ الآية؛ الثامنة أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله؛ التاسعة عظم شأن ثلاث، الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف، وفيها عشر مسائل، أولها النهي عن الشرك؛ العاشرة الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها الله بقوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾. وختمها بقوله ﴿ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾. ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾؛ الحادية عشرة آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾؛ الثانية عشرة التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته؛ الثالثة عشرة معرفة حق الله تعالى علينا؛ الرابعة عشرة معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه؛ الخامسة عشرة أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة؛ السادسة عشرة جواز كتمان العلم للمصلحة؛ السابعة عشرة استحباب بشارة المسلم بما يسره؛ الثامنة عشرة الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله؛ التاسعة عشرة قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم؛ العشرون جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض؛ الحادية والعشرون تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه؛ الثانية والعشرون جواز الإرداف على الدابة؛ الثالثة والعشرون فضيلة معاذ بن جبل؛ الرابعة والعشرون عظم شأن هذه المسألة.

باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ الآية؛ عن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» أخرجاه، ولهما في حديث عتبان «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «قال موسى يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به، قال قل يا موسى لا إله إلا الله، قال يا رب كل عبادك يقولون هذا، قال يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله» رواه ابن حبان والحاكم وصححه والترمذي وحسنه.

وعن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة». فيه مسائل. الأولى سعة فضل الله؛ الثانية كثرة ثواب التوحيد عند الله؛ الثالثة تكفيره مع ذلك للذنوب؛ الرابعة تفسير الآية التي في سورة الأنعام؛ الخامسة تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة؛ السادسة أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول لا إله إلا الله وتبين لك خطأ المغرورين؛ السابعة التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان؛ الثامنة كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله؛ التاسعة التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه؛ العاشرة النص على أن الأرضين سبع كالسموات؛ الحادية عشرة أن لهن عماراً؛ الثانية عشرة إثبات الصفات خلافاً للأشعرية؛ الثالثة عشرة أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان؛ الرابعة عشرة تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه؛ الخامسة عشرة معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله؛ السادسة عشرة معرفة كونه روحاً منه؛ السابعة عشرة معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار؛ الثامنة عشرة معرفة قوله على ما كان من العمل؛ التاسعة عشرة معرفة أن الميزان له كفتان؛ العشرون معرفة ذكر الوجه.

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾، وقال ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾. عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد ابن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت أنا، ثم قلت: أما أني لم أكن في صلاة ولكني لدغت. قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت. قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم؟ قلت حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة. قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ انه قال: «عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي. فقيل لي: هذا موسى وقومه. فنظرت فإذا سواد عظيم. فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». ثم نهض فدخل

منزله فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه فقال: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون». فقام عكاشة بن محصن فقال: أدع الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت منهم». ثم قام رجل آخر فقال: أدع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة».

فيه مسائل: الأولى معرفة مراتب الناس في التوحيد، الثانية ما معنى تحقيقه، الثالثة ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكن من المشركين، الرابعة ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك، الخامسة كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد، السادسة كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل، السابعة عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل، الثامنة حرصهم على الخير، التاسعة فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية، العاشرة فضيلة أصحاب موسى، الحادية عشرة عرض الأمم عليه عليه السلام، الثانية عشرة أن كل أمة تحشر مع نبيها وحدها، الثالثة عشرة قلة من استجاب للأنبياء، الرابعة عشرة أن من لم يجبه أحد يأتي وحده، الخامسة عشرة ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة، السادسة عشرة الرخصة في الرقية من العين والحمة، السابعة عشرة عمق علم السلف، لقوله: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني، الثامنة عشرة بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه، التاسعة عشرة قوله «أنت منهم» علم من أعلام النبوة، العشرون فضيلة عكاشة، الحادية والعشرون استعمال المعاريض، الثانية والعشرون حسن خلقه ﷺ.

باب الخوف من الشرك

وقول الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، وقال الخليل عليه السلام: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾، وفي الحديث «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسئل عنه فقال: «الرياء». وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار»، رواه البخاري. ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «قال من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار».

فيه مسائل: الأولى الخوف من الشرك، الثانية أن الرياء من الشرك، الثالثة أنه من الشرك الأصغر، الرابعة أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين، الخامسة قرب الجنة والنار، السادسة الجمع بين قربهما في حديث واحد، السابعة أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار ولو كان من أعبد الناس، الثامنة المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام، التاسعة اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾، العاشرة فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخاري، الحادية عشرة فضيلة من سلم من الشرك.

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة﴾ الآية. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله فإن هم أطاعوك، لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، أخرجاه. ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه»، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: «أين علي بن أبي طالب؟»، فقيل هو يشتكي عينيه. فأرسلوا إليه فأتي به فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»، يدوكون أي يخوضون.

فيه مسائل: الأولى أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعه ﷺ، الثانية التنبيه على الإخلاص لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه، الثالثة أن البصيرة من الفرائض، الرابعة من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهاً لله تعالى عن المسبة، الخامسة أن من قبح الشرك كونه مسبة لله، السادسة، وهي من أهمها، إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم

ولو لم يشرك، السابعة كون التوحيد أول واجب، الثامنة أنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة، التاسعة أن معنى أن يوحدوا الله معنى شهادة أن لا إله إلا الله، العاشرة أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها وهو لا يعمل بها، الحادية عشرة التنبيه على التعليم بالتدريج، الثانية عشرة البداءة بالأهم فالأهم، الثالثة عشرة مصرف الزكاة، الرابعة عشرة كشف العالم الشبهة عن المتعلم، الخامسة عشرة النهي عن كرائم الأموال، السادسة عشرة اتقاء دعوة المظلوم، السابعة عشرة الإخبار بأنها لا تحجب، الثامنة عشرة من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء، التاسعة عشرة قوله: لأعطين الراية إلخ، علم من أعلام النبوة، العشرون تفله في عينيه علم من أعلامها أيضاً، الحادية والعشرون فضيلة علي رضي الله عنه، الثانية والعشرون فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح، الثالثة والعشرون الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى، الرابعة والعشرون الأدب في قوله على رسلك، الخامسة والعشرون الدعوة إلى الإسلام قبل القتال، السادسة والعشرون أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا، السابعة والعشرون الدعوة بالحكمة لقوله أخبرهم بما يجب عليهم، الثامنة والعشرون المعرفة بحق الله تعالى في الإسلام، التاسعة والعشرون ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد، الثلاثون الحلف على الفتيا.

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾ الآية، وقوله: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ الآية، وقوله: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الآية، وقوله: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾ الآية.

في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل». وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب.

فيه أكبر المسائل وأهمها وهو تفسير التوحيد وتفسير الشهادة وبيّنها بأمور واضحة. منها آية الإسراء بيّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين ففيها بيان أن هذا هو

الشرك الأكبر. ومنها آية براءة بيّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبيّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعة العلماء والعباد في المعصية لادّعائهم إياهم. ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾، فاستثنى من المعبودين ربه. وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله فقال: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾. ومنها آية البقرة في الكفار والذين قال فيهم: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يدخلهم في الإسلام، وكيف بمن أحب الند أكثر من حب الله؟ وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟ ومنها قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»، وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع.

٣

في تفسير كلمة التوحيد(*)

الحمد لوليه والصلاة والسلام على نبيه، سئل الشيخ محمد رحمه الله تعالى عن معنى لا إله إلا الله، فأجاب بقوله: اعلم رحمك الله تعالى أن هذه الكلمة هي الفارقة بين الكفر والإسلام، وهي كلمة التقوى، وهي العروة الوثقى، وهي التي جعلها إبراهيم عليه السلام ﴿كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾. وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها، فإن المنافقين يقولونها وهم تحت الكفار في الدرك الأسفل من النار مع كونهم يصلون ويتصدقون. ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب ومحبتها ومحبة أهلها وبغض ما خالفها ومعاداته كما قال النبي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً»، وفي رواية «خالصاً من قلبه». وفي رواية «صادقاً من قلبه». وفي حديث آخر «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله» إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على جهالة أكثر الناس بهذه الشهادة. فاعلم أن هذه الكلمة نفي وإثبات: نفي الآلهية عما سوى الله تعالى من المخلوقات، حتى محمد ﷺ وجبريل. فضلاً عن غيرهم من الأولياء والصالحين. إذا فهمت ذلك فتأمل هذه الألوهية التي أثبتها الله تعالى لنفسه ونفاها عن محمد ﷺ وجبريل وغيرهما أن يكون لهم منها مثقال حبة من خردل.

فاعلم أن هذه الألوهية هي التي تسميها العامة في زماننا السر والولاية. والإله معناه الولي الذي فيه السر، وهو الذي يسمونه الفقير والشيخ، ويسميه العامة السيد وأشباه

(*) بضع رسائل، ١١٠ - ١١٤.

هذا، وذلك أنهم يظنون أن الله جعل لخواص الخلق منزلة يرضى أن يلتجيء الإنسان إليهم ويرجوهم ويستغيث بهم ويجعلهم واسطة بينه وبين الله. فالذي يزعم أهل الشرك في زماننا أنهم وسائطهم هم الذي يسمونهم الأولون الآلهة والواسطة هو الإله، فقول الرجل لا إله إلا الله إبطال للوسائط.

وإذا أردت أن تعرف هذا معرفة تامة فذلك بأمرين. الأول أن تعرف أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله (ﷺ) وقتلهم ونهب أموالهم واستحل نساءهم كانوا مقرين لله سبحانه بتوحيد الربوبية، وهو أنه لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمور إلا الله وحده، كما قال تعالى ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله﴾. وهذه مسألة عظيمة مهمة، وهي أن تعرف أن الكفار شاهدون بهذا كله ومقرون به، ومع هذا لم يدخلهم ذلك في الإسلام ولم يحرم دماءهم ولا أموالهم، وكانوا أيضاً يتصدقون ويحجون ويعتمرون ويتعبدون ويتركون أشياء من المحرمات خوفاً من الله عز وجل.

الأمر الثاني هو الذي كفرهم وأحل دماءهم وأموالهم وهو أنهم لم يشهدوا لله بتوحيد الألوهية، وهو أنه لا يدعى ولا يرجى إلا الله وحده لا شريك له ولا يستغاث بغيره ولا يذبح لغيره ولا ينذر لغيره، لا لملك مقرب ولا نبي مرسل. فمن استغاث بغيره فقد كفر ومن ذبح لغيره فقد كفر ومن نذر لغيره فقد كفر وأشباه ذلك. وتمام هذا أن تعرف أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله (ﷺ) كانوا يدعون الصالحين مثل الملائكة وعيسى وعُزَير وغيرهم من الأولياء، فكفروا بهذا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق الرازق المدبر.

إذا عرفت هذا عرفت معنى لا إله إلا الله، وعرفت أن من نخا نبياً أو ملكاً أو ندبه أو استغاث به فقد خرج من الإسلام، وهذا هو الكفر الذي قاتلهم عليه رسول الله (ﷺ).

فإن قال قائل من المشركين: نحن نعرف أن الله هو الخالق الرازق المدبر لكن هؤلاء الصالحون يمكن أن يكونوا مقربين ونحن ندعوهم وننذر لهم وندخل عليهم ونستغيث بهم ونريد بذلك الوجاهة والشفاعة وإلا نحن نفهم أن الله هو الخالق المدبر، فقل كلامك، هذا مذهب أبي جهل وأمثاله. فإنهم يدعون عيسى وعزيراً والملائكة والأولياء يريدون ذلك كما قال تعالى ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى

الله زلفى﴾، وقال تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾.

فإذا تأملت هذا تأملاً جيداً وعرفت أن الكفار يشهدون لله بتوحيد الربوبية. وهو تفرد بالخلق والرزق والتدبير. وهم ينخون عيسى والملائكة والأولياء يقصدون أنهم يقربونهم إلى الله زلفى ويشفعون عنده، وعرفت أن من الكفار، خصوصاً النصارى منهم، من يعبد الله الليل والنهار ويزهد في الدنيا ويتصدق بما دخل عليه منها معتزلاً في صومعة عن الناس. وهو مع هذا كافر عدو لله مخلد في النار بسبب اعتقاده في عيسى أو غيره من الأولياء يدعوه أو يذبح له أو ينذر له، تبين لك كيف صفة الإسلام الذي دعا إليه نبيك (ﷺ)، وتبين لك أن كثيراً من الناس عنه بمعزل، وتبين لك معنى قوله ﷺ «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ».

فالله الله يا إخواني تمسكوا بأصل دينكم، وأوله وآخره وأسه ورأسه شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها وأحبوها وأحبوا أهلها واجعلوهم إخوانكم ولو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت وعادوهم وابغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفرهم، أو قال ما عليَّ منهم، أو قال ما كلفني الله بهم. فقد كذب هذا على الله وافترى، فقد كلفه الله تعالى بهم وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا إخوانهم وأولادهم، فالله الله تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً. اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين.

ولنختم الكلام بآية ذكرها الله تعالى في كتابه تبين لك أن كفر المشركين من أهل زماننا أعظم كفراً من الذين قاتلهم رسول الله ﷺ. قال الله تعالى ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا﴾. فقد سمعتم أن الله سبحانه ذكر عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر تركوا السادة والمشايخ ولم يستغيثوا بهم بل أخلصوا لله وحده لا شريك له، واستغاثوه وحده، فإذا جاء الرخاء أشركوا، وأنت ترى المشركين من أهل زماننا ولعل بعضهم يدعي أنه من أهل العلم وفيه زهد واجتهاد وعبادة إذا مسه الضر قام يستغيث بغير الله مثل معروف أو عبد القادر الجيلاني وأجلّ من هؤلاء مثل زيد بن الخطاب والزبير وأجل من هؤلاء مثل رسول الله ﷺ فالله المستعان. وأعظم من ذلك وأطم أهم يستغيثون بالطواغيت والكفرة والمردة مثل شمسان وإدريس (ويقال له الأشقر) ويوسف وأمثالهم والله،

سبحانه وتعالى أعلم والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين آمين.

٤

ذمّ الكلام

(باب التشديد في طلب العلم للمِرَاء والجدال)

عن كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»؛ رواه الترمذي.

وعن أبي أُمامة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً «ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلاَّ أُوتوا الجدل»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ما ضربوه لك إلاَّ جدلاً بل هم قوم خصمون﴾؛ رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم»؛ متَّفق عليه.

وعن أبي وائل عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: «مَن طلب العلم لأربع دخل النار ـ أو نحو هذه الكلمة: ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه أو ليأخذ به من الأمراء»؛ رواه الدارمي.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال لقوم سمعهم يتمارون في الدين: «أما علمتم أن لله عباداً أسكتتهم خشية الله من غير صمم ولا بكم، وإنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء. العلماء بأيام الله، غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتَّى إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلى الله

بالأعمال الزاكية يعدُّون أنفسهم مع المفرِّطين وإنهم لأكياس أقوياء ومع الضالين والخطائين وإنهم لأبرار برآء، ألا إنهم لا يستكثرون له الكثير، ولا يرضون له بالقليل، ولا يُدلون عليه بأعمالهم حيث ما لقيتهم مهتمون مشفقون، وجِلون خائفون»؛ رواه أبو نُعيم. قال الحسن - وسمع قوماً يتجادلون: «هؤلاء قوم مَلُّوا العبادة، وخفَّ عليهم القول، وقلَّ ورعهم فتكلَّموا».

(باب التجوُّز في القول وترك التكلُّف والتنطُّع)

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه مرفوعاً: «الحياء والعيُّ شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النِّفاق»؛ رواه الترمذي.

وعن أبي ثعلبة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربكم مني يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإنَّ أبغضكم إليَّ وأبعدكم منِّي مساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتشدِّقون المتفيهقون»؛ رواه البيهقي في شُعب الإيمان.

وللترمذي نحوه عن جابر - رضي الله عنه - وعن سعد بن أبي وقَّاص - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - «لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتها»؛ رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - مرفوعاً «إن الله يُبغض البليغ من الرجال الذي يتخلَّل بلسانه كما تتخلَّل البقرة بلسانها»؛ رواه الترمذي وأبو داود.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - «مَن تعلَّم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»؛ رواه أبو داود.

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان كلام رسول الله - ﷺ - فصلاً يفهمه كلُّ من يسمعه»، وقالت: كان يُحدِّثنا حديثاً لو عدَّه العاد لأحصاه. وقالت: إنَّه «لم يكن يسرد الحديث كسردكم». روى أبو داود بعضه.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال «إذا رأيتم العبد يُعطى زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يُلقَّى الحكمة»؛ رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وعن بُريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن من البيان سحراً وإنَّ من العلم جهلاً وإن من الشعر حِكَماً وإن من القول عيالا».

وعن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال يوماً وقام رجل فأكثر القول فقال عمرو: لو قصد في قوله لكان خيراً له. سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول «لقد رأيت أو أُمرت أن أتجوَّز في القول فإنَّ الجواز هو خير»؛ رواهما أبو داود.

آخره والحمد لله ربِّ العالمين حمداً كثيراً.

٥

على جملة علم الكلام الوهابي(*)

باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات وقول الله تعالى ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾

وفي صحيح البخاري قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله؟ وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك، فقال: ما فَرَق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه. اهـ. ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾.

فيه مسائل: الأولى عدم الإيمان بشيء من الأسماء والصفات، الثانية تفسير آية الرعد، الثالثة ترك التحديث بما لا يفهم السامع، الرابعة ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر، الخامسة كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك، وأنه هلك.

باب قول الله تعالى ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾

قال ابن عباس في الآية: الإنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في

(*) كتاب التوحيد، ٤٩ - ٥١، ٦٢ - ٦٤.

ظلمة الليل، وهو أن تقول والله وحياتك يا فلانة وحياتي، وتقول لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان. كله به شرك. رواه أبي حاتم. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم، وقال ابن مسعود لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي أن أحلف بغيره صادقاً. وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان». رواه أبو داود بسند صحيح. وجاء عن ابراهيم النخعي أنه يكره أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول بالله ثم بك، قال ويقول لولا الله ثم فلان ولا تقولوا لولا الله وفلان.

فيه مسائل: الأولى تفسير آية البقرة في الأنداد، الثانية أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر بأنها تعم الأصغر، الثالثة أن الحلف بغير الله شرك، الرابعة أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس، الخامسة الفرق بين الواو وثم في اللفظ.

باب قول الله تعالى ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون هل لنا من الأمر من شيء. قل إن الأمر كله لله﴾، وقوله ﴿الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء﴾

قال ابن القيم في الآية الأولى: فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم أمر رسوله وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح. وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار. وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده. فليعتن اللبيب والناصح لنفسه

بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا فمستقل ومستكثر وفتش نفسك هل أنت سالم.

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة * وإلا فإني لا إخالك ناجيا

فيه مسائل: الأولى تفسير آية آل عمران، الثانية تفسير آية الفتح، الثالثة الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر، الرابعة أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

باب ما جاء في منكري القدرة

وقال ابن عمرو: والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أُحُد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابكم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال رب وماذا أكتب؟ قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني». وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم ثم قال له اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة». وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار».

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: أتيت أُبي بن كعب فقلت في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت فكلهم حدثني بمثل ذلك، حديث صحيح عن النبي ﷺ رواه الحاكم في صحيحه.

فيه مسائل، الأولى بيان فرض الإيمان بالقدر، الثانية بيان كيفية الإيمان به، الثالثة إحباط عمل من لم يؤمن به، الرابعة الإخبار بأن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به، الخامسة ذكر أول ما خلق الله، السادسة أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة، السابعة براءة ﷺ ممن لم يؤمن به، الثامنة عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء، التاسعة أن العلماء أجابوه بما يزيل الشبهة وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

القسم الثاني

نقائض الحقّ

١

التمييز بين المؤمنين والمشركين

بسم الله الرحمن الرحيم
(وبه نستعين)

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة وأن يجعلك مباركاً أينما كنت وأن يجعلك ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هذه الثلاث عنوان السعادة.

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله مخلصاً له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها كما قال تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة. فإذا دخل الشرك فيها فسدت كالحدث إذا دخل في الصلاة، كما قال تعالى ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر. أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾. فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار، عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك لعل الله يخلصك من هذه الشبكة وهي الشرك بالله، وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله في كتابه.

الأولى أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا مقرين أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت النافع الضار الذي يدبر جميع الأمور، وما أدخلهم ذلك في الإسلام. والدليل قوله تعالى ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض، أمّن يملك السمع

والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾.

القاعدة الثانية أنهم يقولون: ما توجهنا إليهم ودعوناهم إلا لطلب القربة والشفاعة، نريد من الله لا منهم، لكن بشفاعتهم والتقرب إليهم. ودليل القربة قوله تعالى ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون. إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾، ودليل الشفاعة قوله تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

القاعدة الثالثة أن النبي ﷺ ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم. منهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الصالحين، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، وقاتلهم ﷺ وما فرق بينهم. والدليل قوله تعالى ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾، ودليل الشمس والقمر قوله تعالى ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾، ودليل الصالحين قوله تعالى ﴿قد ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه. إن عذاب ربك كان محذورا﴾، ودليل الملائكة قوله تعالى ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون * فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾، ودليل الأنبياء قوله تعالى ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلتُه فقد علمته تعلم، ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وأن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾، ودليل الأشجار والأحجار حديث أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة

يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال ﷺ: «الله أكبر إنها السنن قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين﴾.

القاعدة الرابعة أن مشركي زماننا أعظم شركاً من الأولين لأن الأولين كانوا يخلصون لله في الشدة ويشركون في الرخاء، ومشركي زماننا شركهم دائم في الرخاء والشدة. والدليل قوله تعالى ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون﴾. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٢

من تاريخ الشرك[*]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اعلم رحمك الله: أن أفرض ما فرض الله عليك معرفة دينك، الذي معرفته والعمل به سبب لدخول الجنة، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار. ومن أوضح ما يكون لذوي الفهم قصص الأولين والآخرين، قصص من أطاع الله وما فعل بهم، وقصص من عصاه، وما فعل بهم. فمن لم يفهم ذلك، ولم ينتفع به فلا حيلة فيه، كما قال تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قَرنٍ هم أشدُّ منهم بطشاً فنقّبوا في البلد هل من محيص﴾.

وقال بعض السلف: «القَصَص جنود الله»، يعني أن المعاند لا يقدر يردها. فأوّل ذلك ما قصّ الله سبحانه عن آدم وإبليس، إلى أن هبط آدم وزوجه إلى الأرض، ففيها من إيضاح المشكلات ما هو واضح لمن تأمّله. وآخر القصّة قوله تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينكم مني هدىً فمن تبع هُداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿فمن اتّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى * ومَن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا﴾ إلى قوله: ﴿ولَعَذاب الآخرة أشدُّ وأبقى﴾.

وهداه الذي وعدنا به هو إرساله الرّسل. وقد وفى بما وعد سبحانه، فأرسل الرسل مبشّرين ومنذرين، لئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل. فأوّلهم نوح وآخرهم نبيّنا ﷺ.

(*) مختصر سيرة الرسول، ٧٠ ـ ٧١.

فاحرص يا عبد الله على معرفة هذا الحبل، الذي بين الله وبين عباده، الذي من استمسك به سلم، ومن ضيّعه عطب. فاحرص على معرفة ما جرى لأبيك آدم، وعدوّك إبليس، وما جرى لنوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وإبراهيم وقومه، ولوط وقومه، وموسى وقومه، وعيسى وقومه ومحمّد ﷺ وقومه. واعرف ما قصّ أهل العلم من أخبار النبي ﷺ وقومه، وما جرى له معهم في مكة، وما جرى له في المدينة. واعرف ما قصّ العلماء عن أصحابه وأحوالهم وأعمالهم، لعلّك أن تعرف الإسلام والكفر؛ فإن الإسلام اليوم غريب، وأكثر الناس لا يميّز بينه وبين الكفر، وذلك هو الهلاك الذي لا يرجى معه فلاح.

وأمّا قصة آدم، وإبليس فلا زيادة على ما ذكر الله في كتابه. ولكن قصة ذرّيته، فأول ذلك أن الله أخرجهم من صلبه أمثال الذر، وأخذ عليهم العهود أن لا يشركوا به شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وإذ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذُرِّيَّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربِّكم قالوا بلى شهدنا﴾. ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج، ورأى فيهم رجلاً من أنورهم، فسأله عنه، فأعلمه أنه داود. فقال: كم عمره؟ قال: ستّون سنة، قال: وهبت له من عمري أربعين سنة، وكان عمر آدم ألف سنة. ورأى فيهم الأعمى والأبرص والمبتلَى. قال: يا ربّ، لِمَ لا سويت بينهم؟ قال: إني أحب أن أُشكَر. فلما مضى من عمر آدم ألف سنة إلا أربعين أتاه ملك الموت، فقال: إنه بقي من عمري أربعون سنة، فقال: إنك وهبتها لابنك داود. فنسي آدم، فنسيت ذرّيته، وجحد آدم، فجحدت ذرّيته.

فلمّا مات آدم، بقي أولاده بعده عشرة قرون على دين أبيهم، دين الإسلام، ثم كفروا بعد ذلك. وسبب كفرهم الغلو في حب الصالحين كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وقالوا لا تذرنَّ آلهتكم ولا تذرنَّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾. وذلك أن هؤلاء الخمسة قوم صالحون كانوا يأمرونهم وينهونهم، فماتوا في شهر، فخاف أصحابهم من نقص الدين بعدهم، فصوّروا صورة كل رجل في مجلسه لأجل التذكرة بأقوالهم وأعمالهم إذا رأوا صورهم، ولم يعبدوهم. ثم طال الزمان، ومات أهل العلم، فلما خلت الأرض من العلماء ألقى الشيطان في قلوب الجهال أن أولئك الصالحين ما صوّروا صور مشايخهم إلا ليستشفعوا بهم إلى الله، فعبدوهم. فلمّا فعلوا ذلك أرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام ليردّهم إلى دين آدم وذرّيته الذين مضوا قبل التبديل، فكان

من أمرهم ما قصّ الله في كتابه. ثم عَمّر نوح وأهل السفينة الأرض، وبارك الله فيهم، وانتشروا في الأرض أمماً وبقوا على الإسلام مدة لا ندري ما قدرها.

ثم حدث الشرك، فأرسل الله الرسل، وما من أمة إلا وقد بعث الله فيها رسولاً يأمرهم بالتوحيد وينهاهم عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقال تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا كلَّ ما جاء أمّةً رسولها كذّبوه﴾.

ولما ذكر القصص في سورة الشعراء ختم كل قصّة بقوله: ﴿إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين﴾، فقصّ الله سبحانه ما قصّ لأجلنا، كما قال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى﴾.

ولما أنكر الله على أناس من هذه الأمة في زمن النبي ﷺ أشياء فعلوها، قال: ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين﴾. وكذلك كان رسول الله ﷺ يقصّ على أصحابه قصص من قبلهم ليعتبروا بذلك. وكذلك أهل العلم في نقلهم سيرة رسول الله ﷺ وما جرى له مع قومه، وما قال لهم، وما قيل له. وكذلك نقلهم سيرة الصحابة، وما جرى لهم مع الكفّار والمنافقين، وذكرهم أحوال العلماء بعدهم، كل ذلك لأجل معرفة الخير والشر.

إذا فهمت ذلك، فاعلم أن كثيراً من الرسل وأممهم لا نعرفهم، لأن الله لم يخبرنا عنهم. لكن أخبرنا عن عاد التي لم يُخلق مثلها في البلاد، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، فكان من أمرهم ما قصّ الله في كتابه، وبقي التوحيد في أصحاب هود إلى أن عُدم بعد مدة، لا ندري كم هي، وبقي في أصحاب صالح، إلى أن عدم بعد مدة لا ندري كم هي.

ثم بعث الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ وليس على وجه الأرض يومئذ مسلم، فجرى عليه من قومه ما جرى، وآمنت به امرأته سارة. ثم آمن له لوط ـ عليه السلام ـ ومع هذا نصره الله، ورفع قدره وجعله إماماً للناس. ومنذ ظهر إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يعدم التوحيد في ذرّيته، كما قال تعالى: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾. فإذا كان هو الإمام، فنذكر شيئاً من أحواله لا يستغني مسلم عن معرفتها، فنقول: في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبيُّ ﷺ قطُّ، إلاَّ ثلاث كذبات: ثنتين منهنَّ في ذات الله، قوله: ﴿إنّي سقيم﴾، وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم

هذا﴾. وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبّار، ومعه سارة، وكانت من أحسن الناس، فقال لها: إنَّ هذا الجبّار إن يعلم أنكِ امرأتي يغلبني عليك، فإن سألكِ فأخبريه أنَّك أختي، فإنَّك أختي في الإسلام، فإنّي لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك. فلمَّا دخل أرضه رآها بعض أهل الجبّار فأتاه، فقال: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون إلاَّ لك. فأرسل إليها، فأُتي بها. فقام إبراهيم إلى الصلاة، فلمَّا دخلت عليه، لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقُبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: «ادعي الله أن يُطلق يدي، فلكِ الله أن لا أضرَّك»، ففعلت، فعاد. فقُبضت يده أشدَّ من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، فعاد. فقُبضت يده أشدَّ من القبضتين الأوليين، فقال لها: «ادعي الله أن يُطلق يدي، ولكِ الله أن لا أضرَّكِ»، ففعلت فأُطلقت يده. ودعا الذي جاء بها، فقال: «إنَّك إنَّما جئتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان. فأخرجها من أرضي»، وأعطاها هاجر. فأقبلت، فلمَّا رآها إبراهيم، انصرف. فقال لها: «مهيم»؟ قالت: «خيراً، كفَّ الله يد الفاجر، وأخدم خادماً». قال أبو هريرة: «فتلك أمُّكم يا بني ماء السماء».

وللبخاري: «أنَّ إبراهيم لمَّا سُئل عنها؟ قال: هي أختي، ثم رجع إليها فقال: لا تُكذِّبي حديثي، فإنّي أخبرتهم أنك أختي والله ما على الأرض مؤمن غيري وغيركِ. فأرسل بها إليه فقام إليها، فقامت تتوضَّأ وتُصلي. فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فَرجي إلاَّ على زوجي، فلا تسلِّط عليَّ يد الكافر. فغطَّ حتى ركض برجله الأرض فقالت: اللهم إن يمت، يُقال: هي قتلته، فأُرسل، ثم قام إليها، فقامت تتوضَّأ وتصلي، وتقول: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فَرجي إلاَّ على زوجي، فلا تسلط عليَّ هذا الكافر. فغط حتَّى ركض برجله، فقالت: اللهم إن يمت يقال: هي قتلته. فأُرسل في الثانية، أو الثالثة، فقال: والله ما أرسلتم إليَّ إلاَّ شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها هاجر. فرجعت إلى إبراهيم، فقالت: أشعرت؟ إن الله كبت الكافر، وأخدم وليدةً».

وكان عليه السلام في أرض العراق. وبعد ما جرى عليه من قومه ما جرى هاجر إلى الشام واستوطنها، إلى أن مات فيها. وأعطته سارة الجارية التي أعطاها الجبار، فواقعها. فولدت له إسماعيل عليه السلام، فغارت سارة، فأمره الله بإبعادها عنها، فذهب بها وبابنها فأسكنهما في مكّة. ثم بعد ذلك وهب الله له ولسارة إسحاق عليه السلام، كما ذكر الله بشارة الملائكة له ولها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب.

وفي «الصحيح» عن ابن عباس، قال: «لمَّا كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأمِّ إسماعيل، ومعه شنَّةٌ فيها ماءٌ، فجعلت أمُّ اسماعيل تشرب من الشنَّة فيدرُّ لبنها على صبيِّها، حتى قدم مكة. فوضعها تحت دوحةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد ـ وليس بمكَّة يومئذ أحد، وليس بها ماء ـ ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء. ثم قفَّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أمُّ إسماعيل، فلمَّا بلغوا كداء، نادته من ورائه: يا إبراهيم! أين تذهب، وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يُضيِّعنا وفي لفظٍ: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله. قالت: رضيت؛ ثمَّ رجعت. فانطلق إبراهيم، حتَّى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثمَّ دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذى زرعٍ عند بيتك المحرَّم ربَّنا ليقيموا الصلواة فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾، وجعلت أمُّ إسماعيل تُرضعه وتشرب من الشَّنَّة، فيدرُّ لبنها على صبيها، حتَّى إذا نفد ما في السِّقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى ـ أو قال: يتلبَّط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفا أقرب جبل إليها، فقامت واستقلبت الوادي تنظر: هل ترى أحداً؟ فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصَّفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتَّى جاوزت الوادي، ثمَّ أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً؟ فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرَّات، قال ابن عبَّاس: قال النبيُّ ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما» ـ ثمَّ قالت: لو ذهبتُ فنظرت ما فعل ـ تعني الصبي ـ فذهبتُ فنظرت، فإذا هو على حاله، كأنَّه ينشغ للموت، فلم تُقرُّها نفسها. فقالت: لو ذهبت لعلِّي أُحسُّ أحداً؟ فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت فلم تُحس أحداً، حتَّى أتمت سبعاً، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل؟ فإذا هي بصوتٍ، فقالت: أغث إن كان عندك خيرٌ. فإذا بجبريل، قال: فقال بعقبه على الأرض، فانبثق الماء فذهبت أمُّ إسماعيل، فجعلت تحفر، فقال أبو القاسم ﷺ: «يرحم الله أمَّ إسماعيل، لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عيناً معيناً» ـ وفي حديثه: فجعلت تغرف الماء في سقائها ـ قال: فشربتْ، وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضَّيعة، فإنَّ ها هنا بيتاً لله، يبنيه هذا الغلام وأبوه وإنَّ الله لا يُضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه

السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتَّى مرَّت بهم رفقة من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إنَّ هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريّاً، أو جريّين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا، وقالوا لأمّ إسماعيل: أتأذنين لنا أن ننزل عندكِ؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم ـ قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحبُّ الأنس» ـ فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتَّى إذا كان بها أهل أبياتٍ منهم، وشبَّ الغلام، وتعلَّم العربية منهم. وأنفسهم وأعجبهم حين شبَّ، فلمَّا أدركَ زوَّجوه امرأةً منهم، وماتت أمُّ إسماعيل. وجاء إبراهيم ـ بعدما تزوَّج إسماعيل ـ يُطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه؟ فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدَّةٍ، فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجكِ اقرئي عليه السلام، وقولي له: يُغيِّرُ عتبة بابه. فلمَّا جاء إسماعيل، كأنَّه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت: نعم جاءنا شيخ ـ كذا وكذا ـ فسألنا عنك؟ فأخبرتُه. وسألني: كيف عيشنا فأخبرته أنَّا في جهدٍ وشدَّةٍ، قال: فهل أوصاكِ بشيءٍ؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّر عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقكِ، الحقي بأهلكِ. فطلَّقها وتزوَّج منهم امرأة أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، فقال لأهله: إنِّي مطَّلعٌ تركتي، فجاء فقال لامرأته: أين إسماعيل؟ قالت: ذهب يصيد. قالت: ألا تنزل فتُطعم، وتشرب؟ قال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشرابنا الماء. قال: اللَّهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم ـ قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «بركة دعوة إبراهيم»، فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكَّة إلاَّ لم يوافقاه. قال النبيُّ ﷺ: ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ. ولو كان لهم حَبٌّ دعا لهم فيه ـ وسألها عن عيشهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بخيرٍ وسِعةٍ وأثنت على الله، قال: إذا جاء زوجكِ، فاقرئي عليه السلام، ومُريه يُثبِّت عتبة بابه. فلمَّا جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، شيخ حسن الهيئة ـ وأثنت عليه ـ فسألني عنك؟ فأخبرته فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا بخيرٍ. قال: هل أوصاكِ بشيءٍ؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تُثبِّت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أُمسككِ. ثمَّ لبث عنهم ما شاء الله، فقال لأهله: إنِّي مطَّلع تركتي، فجاء، فوافق إسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحةٍ قريباً من زمزم، فلمَّا رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع

الوالد بالولد، والولد بالوالد، ثمّ قال: يا إسماعيل! إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربُّك. قال: وتُعينني؟ قال: وأُعينك. قال: إن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً - وأشار إلى أكمةٍ مرتفعة على ما حولها - قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت. فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتّى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿ربَّنا تقبّل منّا إنك أنت السميع العليم﴾، هذا آخر حديث ابن عباس.

فصارت ولاية البيت ومكّة لإسماعيل ثم لذريته من بعده. وانتشرت ذريته في الحجاز وكثروا، وكانوا على الإسلام دين إبراهيم وإسماعيل قروناً كثيرة. ولم يزالوا على ذلك حتى كان في آخر الدنيا: نشأ فيهم عمرو بن لُحَيّ، فابتدع الشرك، وغيّر دين إبراهيم، وتأتي قصته إن شاء الله.

وأما إسحاق عليه السلام فإنه بالشام، وذريته هم بنو إسرائيل والروم. أما بنو إسرائيل فأبوهم يعقوب عليه السلام ابن إسحاق، ويعقوب هو إسرائيل. وأما الروم، فأبوهم عيص بن إسحاق.

وممّا أكرم الله به إبراهيم عليه السلام أن الله لم يبعث بعده نبيّاً إلا من ذرّيته، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا في ذريته النبوّة والكتاب﴾؛ وكل الأنبياء والرسل من ذرّية إسحاق. وأمّا إسماعيل: فلم يبعث من ذرّيته إلا نبيّنا محمّداً ﷺ، بعثه الله إلى العالمين كافة. وكان مَن قبله من الأنبياء كل نبيّ يبعث إلى قومه خاصة، وفضّله الله على جميع الأنبياء بأشياء غير ذلك.

وأما قصة عمرو بن لُحَيّ، وتغييره دين إبراهيم: فإنه نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبّه الناس حبّاً عظيماً، ودانوا له لأجل ذلك، حتى ملّكوه عليهم، وصار ملك مكّة وولاية البيت بيده، وظنّوا أنه من أكابر العلماء، وأفاضل الأولياء. ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنّه حقاً، لأن الشام محل الرسل والكتب، فلهم الفضيلة بذلك على أهل الحجاز وغيرهم. فرجع إلى مكّة، وقدم معه بهُبَل، وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله، فأجابوه. وأهل الحجاز في دينهم تَبَعٌ لأهل مكة، لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم. فتبعهم أهل الحجاز على ذلك، ظنّاً أنه الحق. فلم يزالوا على ذلك حتى بعث الله محمّداً ﷺ بدين إبراهيم عليه السلام، وإبطال ما أحدثه عمرو بن لُحَيّ.

وكانت الجاهلية على ذلك، وفيهم بقايا من دين إبراهيم لم يتركوه كله، وأيضاً يظنّون أن ما هم عليه، وأن ما أحدثه عمرو بدعة حسنة، لا تغير دين إبراهيم. وكانت تلبية نزار: «لبيك، لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». فأنزل الله تعالى: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمٰنكم من شركاء في ما رزقنٰكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصّل الآيٰت لقومٍ يعقلون﴾.

ومن أقدم أصنامهم مناة. وكان منصوباً على ساحل البحر بقُدَيد، تعظمه العرب كلها، لكن الأوس والخزرج كانوا أشدّ تعظيماً له من غيرهم. وبسبب ذلك أنزل الله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجَّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوَّف بهما﴾. ثم اتخذوا اللات في الطائف، وقيل إن أصله رجل صالح كان يلت السّويق للحاج، فمات فعكفوا على قبره. ثم اتخذوا العزّى بوادي نخلة، بين مكة والطائف، فهذه الثلاثة أكبر أوثانهم.

ثم كثر الشرك، وكثرت الأوثان في بقعة من الحجاز، وكان لهم أيضاً بيوت يعظمونها كتعظيم الكعبة؛ وكانوا كما قال تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آيٰته ويُزكيهم ويُعلّمهم الكتٰب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلٰلٍ مبين﴾.

ولما دعاهم رسول الله إلى الله اشتدّ إنكار الناس له، علماؤهم وعبادهم، وملوكهم وعامتهم، حتى إنه لما دعا رجلاً إلى الإسلام قال له: «من معك على هذا؟ قال: حُرٌّ وعبدٌ»، ومعه يومئذ أبو بكر وبلال رضي الله عنهما.

وأعظم فائدة لك أيها الطالب، وأكبر العلم وأجلّ المحصول، إن فهمت ما صح عنه ﷺ أنه قال: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ». وقوله: «لتتّبعنَّ سنن مَن كان قبلكم حذو القُذّة بالقُذّة، حتّى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن». وقوله: «ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلُّها في النّار إلاّ واحدة». فهذه المسألة أجلّ المسائل، فمن فهمها فهو الفقيه. ومن عمل بها فهو المسلم، فنسأل الله الكريم المنان أن يتفضّل علينا وعليكم بفهمها والعمل بها.

٣

جاهلية العرب الأولى[*]

ونذكر قبل ذلك شيئاً من أمور الجاهلية، وما كانت عليه قبل مبعث رسول الله ﷺ. قال قتادة: ذُكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلّهم على الهدى، وعلى شريعة من الحقّ، ثم اختلفوا بعد ذلك. فبعث الله نوحاً عليه السلام، وكان أوّل رسول إلى أهل الأرض.

قال ابن عباس: في قوله تعالى ﴿كان الناس أمّة واحدة﴾، قال: على الإسلام كلّهم. وكان أوّل ما كادهم به الشيطان هو تعظيم الصالحين، وذكر الله ذلك في كتابه في قوله: ﴿وقالوا لا تذرنَّ آلهتكم ولا تذرنَّ ودّاً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾. قال ابن عباس: كان هؤلاء قوماً صالحين. فلما ماتوا في شهر، جزع عليهم أقاربهم، فصوّروا صورهم. وفي غير حديثه: «قال أصحابهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة»، قال: فكان الرجل يأتي أخاه وابن عمّه فيعظّمه، حتى ذهب ذلك القرن، ثم جاء قرن آخر، فعظّموهم أشدّ من الأوّل، ثمّ جاء القرن الثالث، فقالوا: ما عظم أوّلونا هؤلاء إلاّ وهم يرجون شفاعتهم عند الله. فعبدوهم. فلمّا بعث الله إليهم نوحاً ـ وغرق من غرق ـ أهبطت الماء هذه الأصنام من أرض إلى أرض، حتى قذفتها إلى أرض جدّة. فلما نضبت الماء بقيت على الشطّ، فسفت الريح عليها التراب، حتى وارتها.

وكان عمرو بن لُحَيّ سيّد خزاعة كاهناً وله رِئِيّ من الجنّ، فأتاه فقال: «عجل السير والظعن من تهامة، بالسعد والسلامة، ائتِ جُدَّة، تجد أصناماً معدة، فأوردها تهامة ولا

(*) مختصر سيرة الرسول، ٤٩ ـ ٥٤.

تهب، وادع العرب إلى عبادتها تجب». فأتى جدّة فاستثارها، ثم حملها حتى أوردها تهامة. وحضر الحجّ، فدعا العرب إلى عبادتها. فأجابه عوف بن عذرة، فدفع إليه وَدّاً فحمله، فكان بوادي القُرَى بدومة الجندل، وسمى ابنه عبد وَدٍّ، فهو أوّل من سمي به. فلم يزل بنوه يسدنونه، حتى جاء الإسلام. فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد لهدمه، فحالت بينه وبينه بنو عُذرة، وبنو عامر، فقاتلهم فقتلهم، ثم هدمه وجعلهم جُذاذاً.

وأجابت عَمرو بن لحي مُضَر بن نزار، فدفع إلى رجل من هذيل سُواعاً، فكان بأرض يقال لها رُهاط، من بطن نخلة، يعبده من يليه من مضر. وفي ذلك قيل:

تراهم حول قِبْلَتِهِم عكوفاً كما عكفت هُذَيلٌ على سُواعِ

وأجابته مذحج. فدفع إلى نعيم بن عمر المرادي [الإله] يغوث، وكان بأكمة باليمن تعبده مذحج ومن والاها.

وأجابته همدان فدفع إليهم [الإله] يعوق، فكان بقرية يقال لها خيوان تعبده همدان ومن والاها من اليمن. وأجابته حمير، فدفع إليهم نسراً [الإله]، فكان بموضع بسبأ، تعبده حمير ومن والاها.

فلم تزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله رسوله ﷺ فكسرها. وفي «الصحيح» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرُّ قُصبه في النار. فكان أوّل من سيَّب السوائب»، وفي لفظ: «وغيَّر دين إبراهيم»، وفي لفظ عن أبي إسحاق: «فكان أوّل من غيَّر دين إبراهيم، ونصب الأوثان».

وكان أهل الجاهلية على ذلك، فيهم بقايا من دين إبراهيم، مثل تعظيم البيت، والطواف به، والحجّ والعمرة، والوقوف بعرفة ومزدلفة، وإهداء البُدن. وكانت نزار تقول في إهلالها: «لبيك الله لبيك، لبيك لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، فأنزل الله: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمٰنكم من شركاء في ما رزقنٰكم فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نُفصّل الآيات لقوم يعقلون﴾.

ومن أقدم أصنامهم مناة، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلَّل، بقديد، بين مكّة والمدينة. وكانت العرب تعظّمه قاطبة، ولم يكن أحد أشدّ تعظيماً له من الأوس والخزرج. وبسبب ذلك أنزل الله تعالى: ﴿إنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجَّ

البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطوّف بهما﴾، فبعث رسول الله ﷺ عليّاً رضي الله عنه فدهمها عام الفتح.

ثم اتخذوا اللات في الطائف، قيل: إن أصل ذلك رجل كان يلُتُّ السويق للحاج، فمات: فعكفوا على قبره. وكانت صخرة مربّعة، وكان سدنتها ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها بيتاً، فكان جميع العرب يعظّمونها، وكانت العرب تسمّى زيد اللات، وتيم اللات، وهي في موضع منارة مسجد الطائف. فلما أسلمت ثقيف، بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها، وحرقها بالنار.

ثم اتّخذوا العُزّى، وهي أحدث من اللاّت، وكانت بوادي نخلة، فوق ذات عرق، وبنوا عليها بيتاً، وكانوا يسمعون منها الصوت، وكانت قريش تعظّمها. فلما فتح رسول الله ﷺ مكّة، بعث خالد بن الوليد فأتاها فعضدها، وكانت ثلاث سَمُرات، فلما عضد الثالثة فإذا هو بحبشية نافشة شعرها، واضعة يدها على عاتقها، تضرب بأنيابها، وخلفها سادنها، فقال خالد:

يا عَزُّ كُفرانك لا سبحانك إنّي رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حممة، ثم قتل السادن.

وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وأعظمها هُبل، وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان، وكانوا إذا اختصموا، أو أرادوا سفراً أتوه، فاستقسموا بالقداح عنده. وهو الذي قال فيه أبو سفيان يوم أُحد: «اعْلُ هبل»، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله أعلى وأجلّ».

وكان لهم إساف ونائلة؛ قيل أصلهما أن أسافاً رجل من جرهم، ونائلة امرأة منهم، فدخلا البيت، ففجر بها فيه، فمسخهما الله فيه حجرين، فأخرجوهما فوضعوهما ليتّعظ بهما الناس، فلمّا طال الأمد وعبدت الأصنام عُبدا.

وكان لخَثْعَم وبَجِيلة ودَوْس صنم يقال له ذو الخَلَصة، الذي كان يتباله بين مكّة واليمن. فقال رسول الله ﷺ لجرير بن عبد الله البجلي: «ألا تريحني من ذي الخلصة»، فسار إليه بأحمس، فقاتلته همدان، فظفر بهم وهدمه.

وكان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم في مشارف الشام.

وكان لأهل كل واد بمكّة صنم، إذا أراد أحدهم سفراً كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسّح به.

قال ابن إسحاق: وكان لخولان صنم يقال له: عَمّ أنس، وفيهم أنزل الله: ﴿وجعلوا لله ممَّا ذرأ من الحرث والأنعٰم نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾. فلمّا بعث الله محمّداً ﷺ بالتوحيد، قالت قريش: ﴿أَجَعَلَ الآلهة إلٰهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عُجابٌ﴾.

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظّمها كتعظيم الكعبة. ولما فتح رسول الله ﷺ مكّة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعن في وجوهها وعيونها، ويقول: ﴿جاء الحق وزهق البٰطل إن البٰطل كان زهوقاً﴾، وهي تتساقط على رؤوسها، ثم أُمر بها فأُخرجت من المسجد وحُرقت.

٤

تواريخ الارتداد(*)

وصورة الردّة أن العرب افترقت في ردّتها. فطائفة رجعت إلى عبادة الأصنام، وقالوا: لو كان نبيّاً لما مات. وفرقة قالت: نؤمن بالله ولا نصلّي. وطائفة أقرّوا بالإسلام وصلّوا، ولكن منعوا الزكاة. وطائفة شهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله، ولكن صدقوا مسيلمة أن النبيّ ﷺ أشركه معه في النبوّة. وذلك أنه أقام شهوداً معه بذلك، وفيهم رجل من أصحابه معروف بالعلم والعبادة، يقال له الرجّال، فصدَّقوه لأجل ما عرفوا فيه من العلم والعبادة. ففيه يقول بعضهم ممّن ثبت منهم:

يا سعاد الفؤاد بنت أثالِ	طال ليلي بفتنة الرجّالِ
فَتنَ القوم بالشّهادةِ	والله عزيزٌ ذو قُوّةٍ ومحالِ

وقوم من أهل اليمن، صدقوا الأسود العنسي في ادّعائه النبوّة، وقوم صدّقوا طُليحة الأسدي.

ولم يشكّ أحد من الصحابة في كفر من ذكرنا ووجوب قتالهم، إلا مانع الزكاة. ولما عزم أبو بكر رضي الله عنه على قتالهم، قيل له: «كيف نقاتلهم؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتّى يقولوا: لا إله إلاّ الله، فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم، إلاّ بحقّها». قال أبو بكر: فإن الزكاة من حقّها، والله! لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على مِنعه».

(*) مختصر سيرة الرسول، ٢٨ - ٣٦.

ثم زالت الشبهة عن الصحابة رضي الله عنهم، وعرفوا وجوب قتالهم، فقاتلوهم ونصرهم الله عليهم، فقتلوا مَن قتلوا منهم، وسبوا نساءهم وعيالهم. فمن أهمّ ما على المسلم اليوم تأمّل هذه القصة التي جعلها الله من حججه على خلقه إلى يوم القيامة. فمن تأمّل هذه تأمّلاً جيداً، خصوصاً إذا عرف أن الله شهرها على ألسنة العامة، وأجمع العلماء على تصويب أبي بكر في ذلك، وجعلوا من أكبر فضائله، وعلمه، أنه لم يتوقف في قتالهم، بل قاتلهم في أوّل وهلة، وعرفوا غزارة فهمه في استدلاله عليهم بالدليل الذي أشكل عليهم، فردّ عليهم بدليلهم بعينه، مع أن المسألة موضحة في القرآن والسنّة.

أمّا القرآن، فقوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلَّ مرصدٍ فإن تابوا وأقاموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة فخلّوا سبيلهم﴾. وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتّى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله، وأنَّ محمّداً رسول الله، ويُقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم، إلاّ بحقّ الإسلام وحسابهم على الله تعالى» فهذا كتاب الله الصريح للعامي البليد، وهذا كلام رسول الله ﷺ، وهذا إجماع العلماء الذين ذكرتُ لك.

والذي يعرّفك هذا جيداً هو معرفة ضدّه، وهو أن العلماء في زماننا يقولون: من قال «لا إله إلا الله» فهو المسلم، حرام المال والدم، لا يُكفَّر ولا يقاتل، حتى إنهم يصرحون بذلك في شأن البدو الذين يكذبون بالبعث، وينكرون الشرائع، ويزعمون أن شرعهم الباطل هو حقّ الله. ولو طلب أحد منهم خصمه أن يخاصمه عند شرع الله لعدّوه من أنكر المنكرات، بل من حيث الجملة إنهم يكفرون بالقرآن من أوّله إلى آخره، ويكفرون بدين الرسول كلّه، معه إقرارهم بذلك بألسنتهم، وإقرارهم أن شرعهم أحدثه آباؤهم لهم كفراً بشرع الله.

وعلماء الوقت يعترفون بهذا كلّه، ويقولون: ما فيهم من الإسلام شعرة. وهذا القول تلقّته العامة عن علمائهم، وأنكروا به ما بيّنه الله ورسوله، بل كفّروا من صدق الله ورسوله في هذه المسألة، وقالوا: من كفّر مسلماً فقد كفر، والمسلم عندهم: الذي ليس معه من الإسلام شعرة، إلا أنّه يقول بلسانه: «لا إله إلاّ الله»، وهو أبعد الناس عن فهمها وتحقيق مطلوبها علماً وعقيدة وعملاً.

فاعلم ـ رحمك الله ـ أن هذه المسألة أهم الأشياء كلّها عليك، لأنها هي الكفر والإسلام، فإن صدّقتهم فقد كفرت بما أنزل الله على رسوله ﷺ، كما ذكرنا لك من القرآن والسنّة والإجماع، وإن صدقت الله ورسوله عادوك وكفروك.

وهذا الكفر الصريح بالقرآن والرسول في هذه المسألة، قد اشتهر في الأرض مشرقها ومغربها، ولم يسلم منه إلا أقلّ القليل. فإن رجوت الجنّة، وخفت من النار، فاطلب هذه المسألة، وادرسها من الكتاب والسنّة، وحرّرها. ولا تقتصر في طلبها لأجل شدّة الحاجة إليها، ولأنها الإسلام والكفر. وقل: اللّهمّ ألهمني رشدي، وفهمني عنك، وعلّمني منك، وأعذني من مضلات الفتن ما أحييتني. وأكثر الدعاء بالدعاء الذي صحّ في طلبها عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو به في الصلاة، وهو: «اللّهمّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك، إنّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم».

ونزيد المسألة إيضاحاً ودلائل لشدّة الحاجة إليها، فنقول: ليتفطّن العاقل لقصّة واحدة منها وهي أن بني حنيفة أشهر أهل الردّة، وهم الذين يعرفهم العامة من أهل الردّة، وهم عند الناس أقبح أهل الردّة، وأعظمهم كفراً، وهم ـ مع هذا ـ يشهدون: أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله، ويؤذنون ويصلون، ومع هذا فإن أكثرهم يظنون أن النبيّ ﷺ أمرهم بذلك، لأجل الشهود الذين شهدوا مع الرّجّال.

والذي يعرف هذا ـ ولا يشكّ فيه ـ يقول: من قال: «لا إله إلاّ الله» فهو المسلم، ولو لم يكن معه من الإسلام شعرة، بل قد تركه واستهزأ به متعمّداً. فسبحان الله مقلّب القلوب كيف يشاء! كيف يجتمع في قلب من له عقل ـ ولو كان من أجهل الناس ـ أنه يعرف أن بني حنيفة كفروا، مع أن حالهم ما ذكرنا، وأن البدو إسلام، ولو تركوا الإسلام كلّه، وأنكروه، واستهزأوا به على عمد، لأنهم يقولوا: «لا إله إلاّ الله»، لكن أشهد أن الله على كل شيء قدير، نسأله أن يثبّت قلوبنا على دينه، ولا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا منه رحمة، إنه هو الوهاب.

الدليل الثاني: قصة أخرى وقعت في زمن الخلفاء الراشدين:

وهي أن بقايا من بني حنيفة، لما رجعوا إلى الإسلام، وتبرّأوا من مسليمة، وأقرّوا بكذبه،

كبر ذنبهم عند أنفسهم، وتحمّلوا بأهليهم إلى الثغر لأجل الجهاد في سبيل الله، لعلّ ذلك يمحو عنهم آثار تلك الردّة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إلاَّ مَن تاب وءامن وعمل عملاً صٰلحاً فأولئك يُبدِّل الله سيئاتهم حسنٰتٍ﴾، ويقول: ﴿وإنّي لغفّارٌ لمن تاب وءامن وعمل صٰلحاً ثمّ اهتدى﴾. فنزلوا الكوفة، وصار لهم بها محلّة معروفة فيها مسجد يسمّى مسجد بني حنيفة. فمرّ بعض المسلمين على مسجدهم بين المغرب والعشاء، فسمعوا منهم كلاماً معناه: أن مسيلمة كان على حقّ، وهم جماعة كثيرون، ولكن الذي لم يقله لم ينكره على مَن قاله. فرفعوا أمرهم إلى عبد الله بن مسعود، فجمع من عنده من الصحابة واستشارهم: هل يقتلهم وإن تابوا، أو يستتيبهم؟ فأشار بعضهم بقتلهم من غير استتابة، وأشار بعضهم باستتابتهم، فاستتاب بعضهم، وقتل بعضهم ولم يستتبه.

فتأمّل ـ رحمك الله ـ إذا كانوا قد أظهروا من الأعمال الصالحة الشاقة ما أظهروا، لمّا تبرّأوا من الكفر وعادوا إلى الإسلام، ولم يظهر منهم إلا كلمة أخفوها في مدح مسيلمة، لكن سمعها بعض المسلمين. ومع هذا لم يتوقّف أحد في كفرهم كلهم ـ المتكلم والحاضر الذي لم ينكر ـ ولكن اختلفوا: هل تقبل توبتهم أو لا؟ والقصّة في «صحيح البخاري».

فأين هذا من كلام من يزعم أنه من العلماء ويقول: البدو ما معهم من الإسلام شعرة، إلا أنهم يقولون: «لا إله إلاّ الله» ومع ذلك يحكم بإسلامهم بذلك؟ أين هذا مما أجمع عليه الصحابة: فيمن قال تلك الكلمة، أو حضرها ولم ينكر؟

سارت مشرِّقةً وسرتُ مغرِّباً شتّانَ بين مشرِّقٍ ومغرِّبِ

ربنا إني أعوذ بك أن أكون ممّن قلت فيهم: ﴿فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمٰتٍ لا يُبصرون * صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون﴾، ولا ممّن قلت فيهم: ﴿إنَّ شرَّ الدَّواب عند الله الصمُّ البُكم الذين لا يعقلون﴾.

الدليل الثالث: ما وقع في زمان الخلفاء الراشدين:

قصّة أصحاب عليّ بن أبي طالب ـ لما اعتقدوا فيه الألوهية التي تُعتقد اليوم في أناس من أكفر بني آدم وأفسقهم ـ فدعاهم إلى التوبة فأبوا، فخدَّ لهم الأخاديد، وملأها حطباً، وأضرم فيها النار وقذفهم فيها وهم أحياء. ومعلوم أن الكافر ـ مثل اليهودي

والنصراني ـ إذا أمر الله بقتله لا يجوز إحراقه بالنار، فعلم أنهم أغلظ كفراً من اليهود والنصارى.

هذا، وهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويقرأون القرآن، آخذين له عن أصحاب رسول الله ﷺ. فلمّا غلوا في عليّ ذلك الغلو أحرقهم بالنار وهم أحياء، وأجمع الصحابة وأهل العلم كلهم على كفرهم، فأين هذا ممّن يقول في البدو تلك المقالة، مع اعترافه بهذه القصّة وأمثالها، واعترافه أن البدو كفروا بالإسلام كلّه، إلاّ أنهم يقولون لا إله إلاّ الله؟

واعلم: أن جناية هؤلاء إنما هي على الألوهية، وما علمنا فيهم جناية على النبوّة، والذين قبلهم جناياتهم على النبوّة، وما علمنا لهم جناية على الألوهيّة، وهذا ممّا يبيّن لك شيئاً من معنى الشهادتين اللتين هما أصل الإسلام.

الدليل الرابع: ما وقع في زمن الصحابة أيضاً:

وهي قصّة المختار بن أبي عبيد الثقفي. وهو رجل من التابعين، مصاهر لعبد الله بن عمر رضي الله عنه وعن أبيه، مظهر للصلاح. فظهر في العراق يطلب بدم الحسين وأهل بيته، فقتل ابن زياد، ومال إليه من مال، لطلبه دم أهل البيت ممّن ظلمهم ابن زياد، فاستولوا على العراق، وأظهر شرائع الإسلام، ونصب القضاة والأئمّة من أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه. وكان هو الذي يصلّي بالناس الجمعة والجماعة، لكن في آخر أمره زعم أنه يوحى إليه. فسيّر إليه عبد الله بن الزبير جيشاً، فهزموا جيشه وقتلوه، وأمير الجيش مصعب بن الزبير، وتحته امرأةٌ أبوها أحد الصحابة. فدعاها مصعب إلى تكفيره فأبت، فكتب إلى أخيه عبد الله يستفتيه فيها، فكتب إليه: إن لم تبرأ منه فاقتلها. فامتنعت، فقتلها مصعب. وأجمع العلماء كلّهم على كفر المختار ـ مع إقامته شعائر الإسلام ـ لما جنى على النبوّة. وإذا كان الصحابة قتلوا المرأة التي هي من بنات الصحابة لما امتنعت من تكفيره، فكيف بمن لم يكفِّر البدو مع إقراره بحالهم، فكيف بمن زعم أنهم هم أهل الإسلام، ومن دعاهم إلى الإسلام وهو هو الكافر؟ يا ربّنا نسألك العفو والعافية.

الدليل الخامس: ما وقع في زمن التابعين:

وذلك قصّة الجعد بن درهم، وكان من أشهر الناس بالعلم والعبادة. فلما جحد شيئاً من

صفات الله ـ مع كونها مقالة خفية عند الأكثر ـ ضحى به خالد بن عبد الله القَسري يوم عيد الأضحى، فقال: أيّها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتّخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً. ثم نزل فذبحه، ولم يعلم أن أحداً من العلماء أنكر ذلك عليه، بل ذكر ابن القيّم إجماعهم على استحسانه، فقال:

شكر الضحية كلُّ صاحب سُنّةٍ ... لله دَرُّكَ من أخي قُربانِ

فإذا كان رجل من أشهر الناس بالعلم والعبادة، أخذ العلم عن الصحابة، أجمعوا على استحسان قتله، فأين هذا من اعتقاد أعداء الله في البدو؟

الدليل السادس: قصة بني عُبيد القداح:

فإنهم ظهروا على رأس المائة الثالثة، فادّعى عبيد الله أنه من آل عليّ بن أبي طالب، من ذريّة فاطمة، وتزيّى بزيّ أهل الطاعة والجهاد في سبيل الله فتبعه أقوام من البربر من أهل المغرب، وصار له دولة كبيرة في المغرب ولأولاده من بعده، ثم ملكوا مصر والشام، وأظهروا شرائع الإسلام، وإقامة الجمعة والجماعة، ونصبوا القضاة والمفتين. لكن أظهروا الشرك ومخالفة الشريعة، وظهر منهم ما يدلّ على نفاقهم وشدّة كفرهم، فأجمع أهل العلم أنهم كفار وأن دارهم دار حرب، مع إظهارهم شعائر الإسلام. وفي مصر من العلماء والعباد أناس كثير، وأكثر أهل مصر لم يدخل معهم فيما أحدثوا من الكفر. ومع ذلك أجمع العلماء على ما ذكرنا، حتى إن بعض أكابر أهل العلم المعروفين بالصلاح، قال: لو أن معي عشرة أسهم لرميت بواحد منهم النصارى المحاربين، ورميت بالتسعة بني عبيد. ولما كان زمان السلطان محمود بن زَنكي أرسل إليهم جيشاً عظيماً بقيادة صلاح الدين، فأخذوا مصر من أيديهم، ولم يتركوا جهادهم بمصر لأجل من فيها من الصالحين. وأكثر العلماء التصنيف والكلام في كفرهم، مع ما ذكرنا من إظهارهم شرائع الإسلام الظاهرة.

فانظر ما بين هذا وبين ديننا الأول أن البدو إسلام، مع معرفتنا بما هم عليه من البراءة من الإسلام كله، إلا قول «لا إله إلاّ الله». ولا تظنّ أن أحداً منهم يكفر إلا إن انتقل يهودياً أو نصرانياً.

فإن آمنت بما ذكر الله ورسوله، وبما أجمع عليه العلماء، وتبرّأت من دين آبائك في هذه

المسألة، وقلت: آمنت بالله وبما أنزل الله، وتبرأت مما خالفه باطناً وظاهراً، مخلصاً لله الدين في ذلك، وعلم الله ذلك من قلبك، فأبشر، ولكن اسأل الله التثبيت، واعرف أنه مقلّب القلوب.

الدليل السابع: قصة التتار:

وذلك أنهم بعدما فعلوا بالمسلمين ما فعلوا، وسكنوا بلاد المسلمين، وعرفوا دين الإسلام، استحسنوه وأسلموا، لكن لم يعملوا بما يجب عليهم من شرائعه، وأظهروا أشياء من الخروج عن الشريعة، لكنهم كانوا يتلفّظون بالشهادتين، ويصلون الصلوات الخمس والجمعة والجماعة، وليسوا كالبدو. ومع هذا كَفَّرهم العلماء، وقاتلوهم وغزوهم، حتى أزالهم الله عن بلدان المسلمين.

ولو ذكرنا ما جرى من السلاطين والقضاة، من قتل من أتى بأمور يكفر بها - ولو كان يظهر شعائر الإسلام - وقامت عليه البيّنة باستحقاقه للقتل، مع أن في هؤلاء المقتولين من كان من أعلم الناس، وأزهدهم وأعبدهم في الظاهر، مثل الحلاج وأمثاله، ومن هو من الفقهاء المصنفين، كالفقيه عمارة. فلو ذكرنا قصص هؤلاء لاحتمل مجلدات، ولا نعرف فيهم رجلاً واحداً بلغ كفره كفر البدو الذين يقول عنهم - من يزعم إسلامهم -: إنه ليس معهم من الإسلام شعرة إلا قول «لا إله إلاّ الله». ولكن من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً.

والعجب: أن الكتب التي بأيديهم، والتي يزعمون أنهم يعرفونها ويعملون بها، فيها مسائل الردّة. وتمام العجب: أنهم يعرفون بعض ذلك ويقرّون به، ويقولون: من أنكر البعث كفر، ومن شكّ فيه كفر، ومن سبّ الشرع كفر، ومن أنكر فرعاً مجمعاً عليه كفر، كل هذا يقولونه بألسنتهم.

فإذا كان من أنكر الأكل باليمين، أو أنكر النهي عن إسبال الثياب، أو أنكر سنة الفجر أو الوتر، فهو كافر. ويصرّحون: أن من أنكر الإسلام كلّه وكذّب به، واستهزأ بمن صدّقه، فهو أخوك المسلم، حرام الدم والمال، ما دام يقول: «لا إله إلاّ الله». ثم يكفروننا، ويستحلّون دماءنا وأموالنا، مع أنّا نقول: «لا إله إلاّ الله»، فإذا سئلوا عن ذلك؟ قالوا: من كَفر مسلماً فقد كَفر.

ثم لم يكفهم ذلك حتى أفتوا لمن عاهدنا بعهد الله ورسوله: أن ينقض العهد وله في

ذلك ثواب عظيم، ويفتون مَنْ عنده أمانة لنا، أو مال يتيم: أنه يجز له أكل أماناتنا، ولو كانت مال يتيم، بضاعة عنده أو وديعة. بل يرسلون الرسائل لِدَهَّام بن دَوَّاس وأمثاله، إذا حاربوا التوحيد ونصروا عبادة الأصنام، يقولون: أنت يا فلان قمت مقام الأنبياء. مع إقرارهم أن التوحيد ـ الذين ندعو إليه، وكفروا به وصدّوا الناس عنه ـ هو دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن الشرك ـ الذي نهينا الناس عنه، ورغّبوهم هم فيه، وأمروهم بالصبر على آلهتهم ـ: أنه الشرك الذي نهى عنه الأنبياء، ولكن هذه من أكبر آيات الله، فمن لم يفهمها فليبكِ على نفسه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

٥

مسائل الجاهلية(*)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين.

قال رحمه الله تعالى: هذه أمور خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية الكتابيين والأميين مما لا غنى للمسلم عن معرفتها.

فالضد يظهر حسنه الضد * وبضدها تتبين الأشياء

فأهم ما فيها وأشدها خطراً عدم إيمان القلب بما جاء به الرسول ﷺ، فإن أُضيف إلى ذلك استحسان ما عليه أهل الجاهلية تمت الخسارة كما قال تعالى ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾.

المسألة الأولى أنهم يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته، يريدون شفاعتهم عند الله كما قال تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، وقال تعالى ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾، وهذه أعم مسألة خالفهم فيها رسول الله ﷺ فأتى بالإخلاص، وأخبر أنه دين الله الذي أرسل به جميع الرسل وأنه لا يقبل من الأعمال إلا الخالص، وأخبر أن من فعل ما يستحسنونه فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، وهذه المسألة التي تفرق الناس لأجلها بين مسلم وكافر وعندها وقعت العداوة ولأجلها شرع الجهاد كما قال تعالى ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾.
الثانية أنهم متفرقون في دينهم كما قال تعالى ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾،

(*) مختصر سيرة الرسول، ٢٨ - ٣٦.

وكذلك في دنياهم. ويرون ذلك هو الصواب فأتى بالاجتماع في الدين بقوله ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾، وقال تعالى ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾، ونهانا عن مشابهتهم بقوله ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾، ونهانا عن التفرق في الدين بقوله ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾.

الثالثة أن مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له فضيلة، والسمع والطاعة ذل ومهانة، فخالفهم رسول الله ﷺ، وأمر بالصبر على جور الولاة، وأمر بالسمع والطاعة لهم والنصيحة، وغلظ في ذلك وأبدى. وأعاد هذه الثلاث التي فيه جمع بينها فيما ذكر عنه في الصحيحين أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاة الله أمركم». ولم يقع خلل في دين الناس ودنياهم إلا بسبب الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها. الرابعة أن دينهم مبني على أصول أعظمها التقليد، فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار أولهم وآخرهم كما قال تعالى ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾، وقال تعالى ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أوَلَوْ كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾، فأتاهم بقوله ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ الآية، وقوله ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾. الخامسة أن من أكبر قواعدهم الاغترار بالأكثر، ويحتجون به على صحة الشيء ويستدلون على بطلان الشيء بغربته وقلة أهله، فأتاهم بضد ذلك وأوضحه في غير موضع من القرآن. السادسة الاحتجاج بالمتقدمين كقوله ﴿فما بال القرون الأولى * ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾. السابعة الاستدلال بقوم أعطوا قوى في الأفهام والأعمال وفي الملك والمال والجاه فرد الله ذلك بقوله ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾، وقوله ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾، وقوله ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾. الثامنة الاستدلال على بطلان الشيء بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء، كقوله ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾، وقوله ﴿أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا﴾، فرده الله بقوله ﴿أليس

الله بأعلم الشاكرين﴾. التاسعة الاقتداء بفسقة العلماء، فأتى بقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾، وبقوله ﴿لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾. العاشرة الاستدلال على بطلان الدين بقلة أفهام أهله وعدم حفظهم كقوله، ﴿بادىء الرأي﴾. الحادية عشرة الاستدلال بالقياس الفاسد، كقوله ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾. الثانية عشرة إنكار القياس الصحيح والجامع لهذا، وما قبله عدم فهم الجامع والفارق. الثالثة عشرة الغلوّ في العلماء والصالحين، كقوله ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾. الرابعة عشرة أن كل ما تقدم مبني على قاعدة وهي النفي والإثبات فيتبعون الهوى والظن ويعرضون عما آتاهم الله. الخامسة عشرة اعتذارهم عن اتباع ما آتاهم الله بعدم الفهم كقوله ﴿قلوبنا غلف * يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾، فأكذبهم الله وبيّن أن ذلك بسبب الطبع على قلوبهم والطبع بسبب كفرهم. السادسة عشرة اعتياضهم عما أتاهم من الله بكتب السحر، كما ذكر الله ذلك في قوله ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون * واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾. السابعة عشرة نسبة باطلهم إلى الأنبياء، كقوله ﴿وما كفر سليمان﴾، وقوله ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً﴾. الثامنة عشرة تناقضهم في الانتساب، ينتسبون إلى إبراهيم مع إظهارهم ترك أتباعه. التاسعة عشرة قدحهم في بعض الصالحين بفعل بعض المنتسبين، كقدح اليهود في عيسى وقدح اليهود والنصارى في محمد ﷺ. العشرون اعتقادهم في مخاريق السحرة وأمثالهم أنها من كرامات الصالحين ونسبته إلى الأنبياء كما نسبوه لسليمان عليه السلام. الحادية والعشرون تعبدهم بالمكاء والتصدية. الثانية والعشرون أنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً. الثالثة والعشرون أن الحياة الدنيا غرتهم، فظنوا أن عطاء الله منها يدل على رضاه كقوله ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾. الرابعة والعشرون ترك الدخول في الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء تكبراً وأنفة، فأنزل الله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ الآيات. الخامسة والعشرون الاستدلال على بطلانه بسبق الضعفاء كقوله ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾. السادسة والعشرون تحريف كتاب الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. السابعة والعشرون تصنيف الكتب الباطلة ونسبتها إلى الله كقوله ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا

من عند الله﴾. الثامنة والعشرون أنهم لا يعقلون من الحق إلا الذي مع طائفتهم كقوله ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾. التاسعة والعشرون أنهم مع ذلك لا يعلمون بما تقوله الطائفة كما نبّه الله تعالى عليه بقوله ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين؟﴾. الثلاثون وهي من عجائب آيات الله، أنهم لما تركوا وصية الله بالاجتماع وارتكبوا ما نهى الله عنه من الافتراق، صاروا كل حزب بما لديهم فرحون. الحادية والثلاثون وهي من عجائب الله أيضاً، معاداتهم الذين انتسبوا إليه غاية العداوة ومحبتهم دين الكفار الذين عادوهم وعادوا نبيهم وفئتهم غاية المحبة، كما فعلوا مع النبي ﷺ لما أتاهم بدين موسى واتبعوا كتب السحر وهي من دين آل فرعون. الثانية والثلاثون كفرهم بالحق إذا كان مع من لا يهوونه، كما قال تعالى ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾. الثالثة والثلاثون إنكارهم ما أقروا أنهم من دينهم كما فعلوا في حج البيت. فقال تعالى ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾. الرابعة والثلاثون أن كل فرقة تدعي أنها الناجية، فأكذبهم الله بقوله ﴿هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾، ثم بيّن الصواب بقوله ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾. الخامسة والثلاثون التعبد بكشف العورات كقوله ﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾ الآية. السادسة والثلاثون التعبد بتحريم الحلال كما تعبد بالشرك. السابعة والثلاثون التعبد باتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله. الثامنة والثلاثون الإلحاد في الصفات، كقوله تعالى ﴿ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعلمون﴾. التاسعة والثلاثون الإلحاد في الأسماء كقوله ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾. الأربعون التعطيل كقول آل فرعون. الحادية والأربعون نسبة النقائص إليه سبحانه. الثانية والأربعون الشرك في الملك كقول المجوس. الثالثة والأربعون معارضة شرع الله بقدره. السادسة والأربعون مسبة الدهر كقولهم ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾. السابعة والأربعون إضافة نعم الله إلى غيره كقوله ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾. الثامنة والأربعون الكفر بآيات الله. التاسعة والأربعون جحد بعضها. الخمسون قولهم ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾. الحادية والخمسون قولهم في القرآن ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾. الثانية والخمسون القدح في حكمة الله تعالى. الثالثة والخمسون إعمال الحيل الظاهرة والباطنة في دفع ما جاءت به الرسل كقوله ﴿ومكروا ومكر الله﴾. وقوله تعالى ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النار﴾. الرابعة والخمسون الإقرار بالحق ليتوصلوا به

إلى دفعه، كما قال في الآية. الخامسة والخمسون التعصب للمذهب كقوله فيها ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾. السادسة والخمسون تسمية اتباع الإسلام شركاً كما ذكره في قوله تعالى ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ الآيتين. السابعة والخمسون تحريف الكلم عن مواضعه. الثامنة والخمسون تلقيب أهل الهدى بالصبأة والحشوية. التاسعة والخمسون افتراء الكذب على الله. الستون كونهم إذا غلبوا بالحجة فزعوا إلى الشكوى للملوك، كما قال ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾. الحادية والستون رميهم إياهم بالفساد في الأرض كما في الآية. الثانية والستون رميهم إياهم بانتقاص دين الملك، كما قال تعالى ﴿ويذرك وآلهتك﴾، وكما قال تعالى ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾. الثالثة والستون رميهم إياهم بانتقاص آلهة الملك كما في الآية. الرابعة والستون رميهم إياهم بتبديل الدين كما قال تعالى ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾. الخامسة والستون رميهم إياهم بانتقاص الملك كقولهم ﴿ويذرك وآلهتك﴾. السادسة والستون دعواهم العمل بما عندهم من الحق كقوله ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ مع تركهم إياه. السابعة والستون الزيادة في العبادة كفعلهم يوم عاشوراء. الثامنة والستون نقصهم منها كتركهم الوقوف بعرفات. التاسعة والستون تركهم الواجب ورعاً. السبعون تعبدهم بترك الطيبات من الرزق. الحادية والسبعون تعبدهم بترك زينة الله. الثانية والسبعون دعواهم الناس إلى الضلال بغير علم. الثالثة والسبعون دعواهم محبة الله مع تركهم شرعه فطالبهم الله بقوله ﴿قل إن كنتم تحبون الله﴾ الآية. الرابعة والسبعون دعواهم إياهم إلى الكفر مع العلم. الخامسة والسبعون المكر الكُبّار كفعل قوم نوح. السادسة والسبعون أن أئمتم إما عالم فاجر وإما عابد جاهل كما في قوله ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ إلى قوله ﴿ومنهم أميون﴾. السابعة والسبعون تمنيهم الأماني الكاذبة كقوله لهم ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾، وقولهم ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾. الثامنة والسبعون اتخاذ قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد. التاسعة والسبعون اتخاذ آثار أنبيائهم مساجد كما ذكر عن عمر. الثمانون اتخاذ السرج على القبور. الحادية والثمانون اتخاذها أعياداً. الثانية والثمانون الذبح عند القبور. الثالثة والثمانون التبرك بآثار المعظمين كدار ابن حزم لعبث مكرمة قريش. الرابعة والثمانون الفخر بالأحساب. الخامسة والثمانون الاستسقاء بالأنواء.

السادسة والثمانون الطعن في الأنساب. السابعة والثمانون النياحة. الثامنة والثمانون أن أجل فضائلهم الفخر بالأنساب، فذكر الله فيه ما ذكر. التاسعة والثمانون أن أجل فضائلهم أيضاً الفخر ولو بحق فنهى عنه. التسعون أن الذي لا بد منه عندهم تعصب الإنسان لطائفته وتصر من هو منها ظالماً أو مظلوماً فأنزل الله في ذلك ما أنزل. الحادية والتسعون أن دينهم أخذ الرجل بجريمة غيره فأنزل الله ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾. الثانية والتسعون تعيير الرجل بما في غيره فقال «أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية». الثالثة والتسعون الافتخار بولاية البيت. فذمهم الله بقوله ﴿مستكبرين به سامرا تهجرون﴾. الرابعة والتسعون الافتخار بكونهم ذرية الأنبياء فأتى الله بقوله ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت﴾. الخامسة والتسعون الافتخار بالصنائع كفعل أهل الرحلتين على أهل الحرث. السادسة والتسعون عظمة الدنيا في قلوبهم كقولهم ﴿لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾. السابعة والتسعون التحكم على الله كما في الآية. الثامنة والتسعون ازدراء الفقراء فأتاهم بقوله ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾. التاسعة والتسعون رميهم أتباع الرسل بعدم الإخلاص وطلب الدنيا فأجابهم بقوله ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾، وأمثالها. المائة الكفر بالملائكة. الحادية بعد المائة الكفر بالرسل. الثانية بعد المائة الكفر بالكتب. الثالثة بعد المائة الإعراض عما جاء عن الله. الرابعة بعد المائة الكفر باليوم الآخر. الخامسة بعد المائة التكذيب بلقاء الله. السادسة بعد المائة التكذيب ببعض ما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر كما في قوله ﴿أولئك الذين كذبوا بآيات ربهم ولقائه﴾، ومنها التكذيب بقوله ﴿مالك يوم الدين﴾ وقوله ﴿لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ وقوله ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾. السابعة بعد المائة الإيمان بالجبت والطاغوت. الثامنة بعد المائة تفضيل دين المشركين على دين المسلمين. التاسعة بعد المائة لبس الحق بالباطل. العاشرة بعد المائة كتمان الحق مع العلم به. الحادية عشرة بعد المائة قاعدة الضلال، وهي القول على الله بلا علم. الثانية عشرة بعد المائة التناقض الواضح كما كذبوا الحق كما قال تعالى ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾. الثالثة عشرة بعد المائة الإيمان ببعض المنزل دون بعض. الرابعة عشرة بعد المائة التفريق بين الرسل. الخامسة عشرة بعد المائة مخالفتهم فيما ليس لهم به علم. السادسة عشرة بعد المائة دعواهم اتباع السلف مع التصريح بمخالفتهم. السابعة عشرة بعد المائة صدهم عن سبيل الله من آمن به.

الثامنة عشرة بعد المائة مودتهم الكفر والكافرين. التاسعة عشرة والعشرون بعد المائة والحادية والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعشرون بعد المائة: العيافة والطرق والطيرة والكهانة والتحاكم إلى الطاغوت وكراهة التزويج بين العبدين والله أعلم.

٦

أصناف الشرك وصفاته(*)

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره﴾.

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر، فقال: «ما هذا» قال: من الواهنة فقال: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً»، رواه أحمد بسند لا بأس به، وله عن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً: «من علق تميمة فلا أتم الله له، ومن علق ودعة فلا ودع الله له»، وفي رواية «من علق تميمة فقد أشرك». ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله تعالى ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾.

فيه مسائل: الأولى التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك، الثانية أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر، الثالثة أنه لم يعذر بالجهالة، الرابعة أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر لقوله: «لا تزيدك إلا وهنا»، الخامسة الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك، السادسة التصريح بأن من علق شيئاً وكل إليه، السابعة التصريح بأن من علق تميمة فقد أشرك، الثامنة أن

(*) كتاب التوحيد، ١٢ - ٢٠.

تعليق الخيط من الحمى من ذلك، التاسعة تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة، العاشرة أن تعليق الودع عن العين من ذلك، الحادية عشرة الدعاء على من علق تميمة أن الله لا يتم له ومن علق ودعة فلا ودع الله له أي لا ترك الله له.

باب ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي عنه، أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، رواه أحمد وأبو داود. وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً «من علق شيئاً وكل إليه»، رواه أحمد والترمذي. التمائم: شيء يعلق على الأولاد عن العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه منهم ابن مسعود رضي الله عنه. والرقى: هي التي تسمى العزائم وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمى. والتولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته. وروى أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله (ص) «يا رويفع لعل الحياة تطول بك فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وتراً أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً بريء منه». وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة»، رواه وكيع. وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن.

فيه مسائل: الأولى تفسير الرقى والتمائم، الثانية تفسير التولة، الثالثة أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء، الرابعة أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمى ليس من ذلك، الخامسة أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا، السادسة أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك، السابعة الوعيد الشديد على من علق وتراً، الثامنة فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان، التاسعة أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف، لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ الآيات. عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط. فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ «الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو اسرائيل لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾، لتركبنَّ سنن من كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه.

فيه مسائل: الأولى تفسير آية النجم، الثانية معرفة صورة الأمر الذي طلبوا، الثالثة كونهم لم يفعلوا، الرابعة كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه، الخامسة أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل، السادس أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم، السابعة أن النبي ﷺ لم يعذرهم بل رد عليهم بقوله: «الله أكبر إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم»، فغلظ الأمر بهذه الثلاث، الثامنة الأمر الكبير هو المقصود أنه أخبر أن طلبتهم كطلبة بن اسرائيل لما قالوا لموسى: اجعل لنا إلهاً، التاسعة أن نفي هذا من معنى لا إله إلا الله مع دقته وخفائه على أولئك، العاشرة أنه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة، الحادية عشرة أن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنهم لم يرتدوا بهذا، الثانية عشرة قولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر، فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك، الثالثة عشرة ذكر التكبير عند التعجب خلافاً لمن كرهه، الرابعة عشرة سد الذرائع، الخامسة عشرة النهي عن التشبه بأهل الجاهلية، السادسة عشرة الغضب عند التعليم، السابعة عشرة القاعدة الكلية لقوله إنها السنن، الثامنة عشرة أن هذا من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر، التاسعة عشرة أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا، العشرون أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر: أما من ربك فواضح، وأما من نبيك فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما من دينك فمن قولهم، اجعل لنا إلهاً إلى آخره، الحادية والعشرون أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين، الثانية والعشرون أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر.

من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿يوفون بالنذر﴾، وقوله: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه﴾. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلام قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه». فيه مسائل: الأولى وجوب الوفاء بالنذر، الثانية إذا ثبت كونه عبادة الله فصرفه إلى غيره شرك، الثالثة أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾، وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك»، رواه مسلم.

فيه مسائل: الأولى تفسير آية الجن، الثانية كونه من الشرك، الثالثة الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء استدلوا به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك، الرابعة فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره، الخامسة أن كون الشيء يحصل به مصلحة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك.

من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالى: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ الآية، وقوله ﴿فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه﴾ الآية، وقوله ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ الآيتين، وقوله ﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾. وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق فقال النبي ﷺ «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله».

فيه مسائل. الأولى أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص، الثانية تفسير قوله ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾، الثالثة أن هذا هو

الشرك الأكبر، الرابعة أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين، الخامسة تفسير الآية التي بعدها، السادسة كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً، السابعة تفسير الآية الثالثة، الثامنة أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله كما أن الجنة لا تطلب إلا منه، التاسعة تفسير الآية الرابعة، العاشرة أنه لا أضل ممن دعا غير الله، الحادية عشرة أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه، الثانية عشرة أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له، الثالثة عشرة تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو، الرابعة عشرة كفر المدعو بتلك العبادة، الخامسة عشرة أن هذه الأمور سبب كونه أضل الناس، السادسة عشرة تفسير الآية الخامسة، السابعة عشرة الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين، الثامنة عشرة حماية المصطفى (ص) حمى التوحيد والتأدب مع الله.

* * * *

وقول الله تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾، وقوله: ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾، وقوله: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، وقوله: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾، وقوله: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾، الآيتين.

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونا لله. ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾. فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع. وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال «من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه». فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله. وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك. ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. انتهى كلامه.

فيه مسائل: الأولى تفسير الآيات، الثانية صفة الشفاعة المنفية، الثالثة صفة الشفاعة المثبتة، الرابعة ذكر الشفاعة الكبرى وهي المقام المحمود، الخامسة صفة ما يفعله النبي ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة أولاً بل يسجد، فإذا أذن الله له شفع، السادسة من أسعد الناس بها، السابعة أنها لا تكون لمن أشرك بالله، الثامنة بيان حقيقتها.

ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين، وقول الله عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾.

في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى ﴿وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا * ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾، قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائكم، ففعلوا، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت. وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»، أخرجاه. قال: قال رسول الله ﷺ «إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو». ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثا.

فيه مسائل: الأولى أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الاسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب، الثانية معرفة أول شرك حدث على وجه الأرض أنه بشبهة الصالحين، الثالثة أول شيء غير به دين الأنبياء وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم، الرابعة قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها، الخامسة أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، فالأول محبة الصالحين، والثاني فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً فظن من بعدهم أنهم أرادوا غيره؛ السادسة تفسير الآية التي في سورة نوح، السابعة جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد، الثامنة أن فيه شاهداً لما نقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر، التاسعة معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل، العاشرة معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه، الحادية عشرة مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح، الثانية عشرة معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها، الثالثة عشرة معرفة عظم شأن هذه القصة

وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها، الرابعة عشرة وهي أعجب وأعجب، قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال، الخامسة عشرة التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة، السادسة عشرة ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك، السابعة عشرة البيان العظيم في قوله «لا تطروني» إلخ، فصلوات الله وسلامه عليه بلّغ البلاغ المبين، الثامنة عشرة نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين، التاسعة عشرة التصريح أنها لم تعبد حتى نسي العلم ففيها معرفة قدر وجوده ومضرة فقده، العشرون أن سبب فقد العلم موت العلماء.

باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده

في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور. فقال «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله». فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين، فتنة القبور وفتنة التماثيل، ولهما عنها. قالت: لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يُتخذ مسجداً، أخرجاه. ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك». فقد نهى عنه في آخر حياته ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد، وهو معنى قولها «خشي أن يُتخذ مسجداً». فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كان موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال صلى الله عليه وسلم «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً». ولأحمد بسند جيد

عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد»، ورواه أبو حاتم في صحيحه.

فيه مسائل: الأولى ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ولو صحت نية الفاعل، الثانية النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك، الثالثة العبرة في مبالغته صلى الله عليه وسلم في ذلك كيف بيّن لهم هذا أولاً ثم قبل موته بخمس، قال ما قال ثم لما كان في النزع لم يكتف بما تقدم، الرابعة نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر، الخامسة أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم، السادسة لعنه إياهم على ذلك، السابعة أن مراده صلى الله عليه وسلم تحذيره إيانا عن قبره، الثامنة العلة في عدم إبراز قبره، التاسعة في معنى اتخاذه مسجداً، العاشرة أنه قرن بين من اتخذها مسجداً وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته، الحادية عشرة ذكره في خطبته قبل موته بخمس الرد على الطائفتين اللتين هما شر أهل البدع، بل أخرجهم بعض السلف من الستين والسبعين فرقة وهم الرافضة والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور وهم أول من بنى عليها المساجد، الثانية عشرة ما بلي به ﷺ من شدة النزع، الثالثة عشرة ما أكرم به من الخلّة، الرابعة عشرة التصريح بأنها أعلى من المحبة، الخامسة عشرة التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة، السادسة عشرة الإشارة إلى خلافته.

ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبده، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: (أفرأيتم اللات والعزى) قال: كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره، وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس كان يلت السويق للحجاج. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»، رواه أهل السنن.

فيه مسائل: الأولى تفسير الأوثان، الثانية تفسير العبادة، الثالثة أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه، الرابعة قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، الخامسة ذكر شدة الغضب

من الله، السادسة وهي من أهمها معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان، السابعة معرفة أنه قبر رجل صالح، الثامنة أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية، التاسعة لعنه زوارات القبور، العاشرة لعنه من أسرجها.

ما جاء في السحر وقول الله تعالى ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾، وقوله ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾.

قال عمر: الجبت السحر والطاغوت الشيطان. وقال جابر: الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل ما اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وعن جندب مرفوعاً: «حد الساحر ضربه بالسيف»، رواه الترمذي، وقال الصحيح إنه موقوف. وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة، قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر. وصح عن حفصة رضي الله عنها أنا أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت، وكذلك صح عن جندب، قاله أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

فيه مسائل. الأولى تفسير آية البقرة، الثانية تفسير آية النساء، الثالثة تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما، الرابعة أن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس، الخامسة معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي، السادسة أن الساحر يكفر، السابعة أنه يقتل ولا يستتاب، الثامنة وجود هذا في المسلمين على عهد عمر فكيف بعده.

باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت». قال عوف: العيافة زجر الطير والطرق الخط، يخط بالأرض والجبت. قال الحسن رنة الشيطان: إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه، وعن

ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»، رواه أبو داود وإسناده صحيح. وللنسائي من حديث أبي هريرة: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه». وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه هي النميمة القالة بين الناس»، رواه مسلم، ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً».

فيه مسائل: الأولى أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت، الثانية تفسير العيافة والطرق والطيرة، الثالثة أن علم النجوم من أنواع السحر، الرابعة أن العقد مع النفث من ذلك، الخامسة أن النميمة من ذلك، السادسة أن بعض الفصاحة منه.

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً». وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» صلى الله عليه وسلم، رواه أبو داود. وللأربعة والحاكم وقال صحيح على شرطهما عن: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بماي قول فقد كفر بما أنزل على محمد» صلى الله عليه وسلم. ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً. وعن عمران بن حصين مرفوعاً: «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» صلى الله عليه وسلم، رواه البزار باسناد جيد ورواه الطبراني في الأوسط باسناد حسن من حديث ابن عباس، دونه قوله «ومن أتى» آلى آخر.

قال البغوي: العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك، وقيل هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل الذي يخبر عما في الضمير. وقال أبو العباس بن تيمية: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق. وقال ابن عباس في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق.

فيه مسائل: الأولى أنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن، الثانية التصريح بأنه كفر، الثالثة ذكر من تكهن له، الرابعة ذكر من تطير له، الخامسة ذكر من سحر له، السادسة ذكر من تعلم «أبا جاد»، السابعة ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

باب ما جاء في النشرة

عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال «هي من عمل الشيطان»، رواه أحمد بسند جيد وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله. وفي البخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب، رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر؟ قال لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينه عنه انتهى.

وروي عن الحسن أنه قال: لا يُحل السحر إلا ساحر. قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور وهي نوعان، حل بسحر مثله وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور؛ والثاني النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز.

فيه مسائل: الأولى النهي عن النشرة، الثانية الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال.

باب ما جاء في التطير وقول الله تعالى ﴿ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، وقوله ﴿قالوا طائركم معكم﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»، أخرجاه. زاد مسلم: «ولا نوء ولا غول». ولهما عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل». قالوا وما الفأل؟ قال «الكلمة الطيبة». ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك». وله من حديث ابن مسعود مرفوعاً: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، ولكن الله يذهبه بالتوكل»، رواه أبو داود والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود. ولأحمد من حديث ابن عمر: «ومن ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك». قالوا فما كفارة ذلك؟

قال: «أن تقول اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك». وله من حديث الفضل بن العباس: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك».

فيه مسائل: الأولى التنبيه على قوله ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ مع قوله ﴿طائركم معكم﴾، الثانية نفي العدوى، الثالثة نفي الطيرة، الرابعة نفي الهامة، الخامسة نفي الصفر، السادسة أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب، السابعة تفسير الفأل، الثامنة أن الواقع في القلب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل، التاسعة ذكر ما يقوله من وجده، العاشرة التصريح بأن الطيرة شرك، الحادية عشرة تفسير الطيرة المذمومة.

باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث، زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها؛ فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به انتهى. وكره قتادة تعلم منازل القمر ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق، وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة. مد من الخمر وقاطع الرحم ومصدق بالسحر»، رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

فيه مسائل: الأولى الحكمة في خلق النجوم، الثانية الرد على من زعم غير ذلك، الثالثة ذكر الخلاف في تعلم المنازل، الرابعة الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء وقول الله تعالى ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الانساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة». وقال «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»، رواه مسلم.

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح

بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟»، قالوا الله ورسوله أعلم؛ قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب». ولهما من حديث ابن عباس معناه وفيه قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآية ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ إلى قوله ﴿تكذبون﴾.

٧

وجوب قتال مشركي اليوم(*)

اعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين.
أحدهما أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء، وأما في الشدة فيخلصون لله الدين، كما قال تعالى ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾، وقال تعالى ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾، وقال تعالى ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه﴾، إلى قوله ﴿قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾، وقوله ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين﴾.

فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله تعالى ويدعون غيره في الرخاء وأما في الضر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له وينسون ساداتهم، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً؟ والله المستعان.

والأمر الثاني أن الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله، إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة، أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا

(*) كتاب كشف الشبهات، ٨٣.

والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك، والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به.

إذا تحققت أن الذين قاتلهم رسول الله (ص) أصح عقولاً وأخف شركاً من هؤلاء، فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا، وهي من أعظم شبههم. فأصغ سمعك لجوابها. وهي أنهم يقولون إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله ويكذبون الرسول (ص) وينكرون البعث ويكذبون القرآن ويجعلونه سحراً، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ونصدق القرآن ونؤمن بالبعث ونصلي ونصوم فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟

فالجواب أن لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدق رسول الله (ص) في شيء وكذبه في شيء أنه كافر لم يدخل في الإسلام، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أو أقر بالتوحيد والصلاة وجحد وجوب الزكاة، أو أقر بهذا كله وجحد الصوم، أو أقر بهذا كله وجحد الحج. ولما لم ينقد أناس في زمن النبي (ص) للحج أنزل الله في حقهم ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾. ومن أقر بهذا كله وجحد البعث كفر بالإجماع وحل دمه وماله، كما قال تعالى ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقاً﴾.

فإذا كان الله قد صرح في كتابه أن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقاً زالت هذه الشبهة، وهذه هي التي ذكرها بعض أهل الأحساء في كتابه الذي أرسله إلينا. ويقال أيضاً إذا كنت تقرأ من صدق الرسول في كل شيء وجحد وجوب الصلاة فهو كافر حلال الدم والمال بالإجماع، وكذلك إذا أقر بكل شيء إلا البعث وكذلك لو جحد وجوب صوم رمضان وكذب بذلك كله، لا يجحد هذا، ولا تختلف المذاهب فيه، وقد نطق به القرآن كما قدمنا.

فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي (ص) وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج. فكيف إذا جحد الإنسان شيئاً من هذه الأمور؟ كفر ولو عمل بكل ما جاء به الرسول ﷺ؟ وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر؟ سبحان الله ما أعجب هذا الجهل.

ويقال أيضاً هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وقد أسلموا مع النبي ﷺ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويؤذنون ويصلون. فإن قال إنهم يقولون إن مسيلمة نبي قلنا هذا هو المطلوب إذا كان من رفع رجلاً في رتبة النبي ﷺ كفر وحل ماله ودمه، ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة. فكيف بمن رفع شمسان أو يوسف أو صحابياً أو نبياً في رتبة جبار السموات والأرض؟ سبحان الله ما أعظم شأنه ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾.

ويقال أيضاً الذين حرقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار كلهم يدعون الإسلام وهم من أصحاب علي رضي الله عنه. وتعلموا العلم من الصحابة. ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم؟ أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين؟ أتظنون أن الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضر والاعتقاد في علي بن أبي طالب يكفر؟

ويقال أيضاً بنو عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمن بني العباس كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويدعون الإسلام ويصلون الجمعة والجماعة. فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه، أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين.

ويقال أيضاً إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول ﷺ والقرآن وإنكاره وغير ذلك، فما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب (باب حكم المرتد)، وهو المسلم يكفر بعد إسلامه، ثم ذكروا أنواعاً كثيرة كل نوع منها يكفر ويحل دم الرجل وماله حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه أو كلمة يذكرها على وجه المزاح واللعب.

ويقال أيضاً الذين قال الله فيهم ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾، أما سمعت الله كفرهم بكلمة مع كونهم في زمن رسول الله ﷺ ويجاهدون معه ويصلون ويزكون معه ويحجون ويوحدون؟ وكذلك الذين قال الله فيهم ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾، فهؤلاء الذين صرح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم وهم مع رسول الله (ﷺ) في غزوة تبوك، قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح. فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم

تكفرون من المسلمين أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلون ويصومون ثم تأمل جوابها، فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق.

ومن الدليل على ذلك أيضاً ما حكى الله تعالى عن بني إسرائيل مع إسلامهم وعلمهم وصلاحهم، أنهم قالوا لموسى ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾، وقول أناس من الصحابة اجعل لنا ذات أنواط. فحلف رسول الله ﷺ أن هذا مثل قول بني إسرائيل ﴿اجعل لنا إلهاً﴾. ولكن للمشركين شبهة يدلون بها عند هذه القصة، وهي أنهم يقولون إن بني إسرائيل لم يكفروا بذلك، وكذلك الذين قالوا للنبي ﷺ اجعل لنا ذات أنواط لم يكفروا. فالجواب أن تقول إن بني إسرائيل لم يفعلوا وكذلك الذين سألوا النبي (ﷺ) لم يفعلوا. ولا خلاف أن بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا، وكذلك لا خلاف في أن الذين نهاهم النبي (ﷺ) لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا، وهذا هو المطلوب. ولكن هذه القصة تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها، فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول الجاهل: التوحيد فهمناه، إن هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان. وتفيد أيضاً أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلام كفر وهو لا يدري فنبه على ذلك وتاب من ساعته، أنه لا يكفر كما فعل بنو إسرائيل والذين سألوا النبي (ﷺ). وتفيد أيضاً أنه لو لم يكفر فإنه يغلظ عليه الكلام تغليظاً شديداً كما فعل رسول الله (ﷺ).

ولهم شبهة أخرى: يقولون إن النبي (ﷺ) أنكر على أسامة قتل من قال لا إله إلا الله. وقال «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟». وكذلك قوله «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، وأحاديث أُخر في الكف عمن قالها. ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل. فيقال لهؤلاء المشركين الجهال: معلوم أن رسول الله (لله) قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون لا إله إلا الله، وأن أصحاب رسول الله (ﷺ) قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلون ويدعون الإسلام، وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها، فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئاً من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه. ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث. فأما حديث أسامة فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أن ما ادعاه

إلا خوفاً على دمه وماله، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك. وأنزل الله في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾ أي فتثبتوا، فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإن تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله ﴿فتبينوا﴾، ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى. وكذلك الحديث الآخر وأمثاله، معناه ما ذكرناه أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلا إن تبين منه ما يناقض ذلك.

والدليل على هذا أن رسول الله (ﷺ) الذي قال «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» وقال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، هو الذي قال في الخوارج «أينما لقيتموهم فاقتلوهم لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد». مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً، حتى إن الصحابة يحقرون أنفسهم عندهم، وهم تعلموا العلم من الصحابة، فلم تنفعهم لا إله إلا الله ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة، وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة بني حنيفة. وكذلك أراد ﷺ أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾، وكان الرجل كاذباً عليهم، فكل هذا يدل على أن مراد النبي (ﷺ) في الأحاديث ما ذكرناه.

ولهم شبهة أخرى، وهي ما ذكر النبي (ﷺ) أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى، فكلهم يعتذرون حتى ينتهوا إلى رسول الله (ﷺ) قالوا فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً. فالجواب أن نقول: سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فإن الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها. كما قال تعالى في قصة موسى ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق. ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله.

إذا ثبت ذلك فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائز في الدنيا والآخرة أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك وتقول له ادع الله لي كما كان

أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته. وأما بعد موته فحاشا وكلا إنهم سألوه ذلك عند قبره، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره فكيف دعاؤه نفسه.

ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا. قالوا فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركاً لم يعرضها على إبراهيم. فالجواب أن هذا من جنس الشبهة الأولى. فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه، فإنه كما قال الله تعالى فيه ﴿شديد القوى﴾. فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره أن يضع ابراهيم عليه السلام في مكان بعيد عنهم لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل، وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلاً محتاجاً فيعرض عليه أن يقرضه، أو أن يهبه شيئاً يقضي به حاجته، فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ ويصبر حتى يأتيه الله برزق لا منة فيه لأحد. فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون؟

ولنختم الكلام إن شاء الله تعالى بمسألة عظيمة مهمة جداً تفهم مما تقدم ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها فنقول:

لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً. فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما، وهذا يغلط فيه كثير من الناس، يقولون هذا حق ونحن نفهم هذا ونشهد أنه الحق، ولكن لا نقدر أن نفعله ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، وغير ذلك من الأعذار. ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار، كما قال تعالى ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ وغير ذلك من الآيات كقوله ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾. فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه أو لا يعتقده بقلبه فهو منافق، وهو شر من الكافر الخالص. ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾.

وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة تبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس، ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة، وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً، فإذا سألته عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه، ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله أولاهما ما تقدم من قوله ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ فإذا تحققت أن

بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفاً من نقص مال أو جاه أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها.

والآية الثانية قوله تعالى ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان. وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه سواء فعله خوفاً أو مداراة أو مشحة بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله أو فعله على وجه المزح أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره، والآية تدل على هذا من جهتين الأولى قوله ﴿إلا من أكره﴾ فلم يستثن الله إلا المكره. ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العمل أو الكلام. وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها:

والثانية قوله تعالى ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكونا بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين والله سبحانه وتعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين، آمين.

القسم الثالث

المستفاد
من سيرة الرسول

١

الجهاد والهجرة

> إن الإسلام لا يستقيم إلا بالعداوة لمن تركه وعيب دينه وإلا لو كان لأولئك المعذّبين رخصة لفعلوا.

وجرى بينه [أي الرسول] وبينهم ما يطول وصفه، وقصّ الله سبحانه بعضه في كتابه. ومن أشهر ذلك: قصة عمّه أبي طالب لما حماه بنفسه وماله وعياله وعشيرته، وقاسى في ذلك الشدائد العظيمة، وصبر عليها، ومع ذلك كان مصدّقاً له، مادحاً لدينه، محبّاً لمن اتّبعه، معادياً لمن عاداه؛ لكن لم يدخل فيه، ولم يتبرّأ من دين آبائه، واعتذر عن ذلك بأنه لا يرضى بمسبّة آبائه، ولولا ذلك لاتّبعه. ولما مات وأراد النبي ﷺ الاستغفار له أنزل الله عليه: ﴿ما كان للنبي والذين ءامنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبيّنّ لهم أنهم أصحٰب الجحيم﴾. فيا لها من عبرة ما أبينها ومن عظة ما أبلغها ومن بيان ما أوضحها!

وممّا وقع أيضاً قصته ﷺ معهم لما قرأ سورة النجم بحضرتهم. فلما وصل إلى قوله: ﴿أفرأيتم اللٰت والعُزّى * ومنٰوة الثالثة الأخرى﴾، ألقى الشيطان في تلاوته: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى»، وظنّوا أن النبي ﷺ قاله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وتلقّاها الصغير والكبير منهم، وقالوا كلاماً معناه: هذا الذي نريد، نحن نقرّ أن الله هو الخالق الرازق، المدبّر للأمور، ولكن نريد شفاعتها عنده، فإذا أقرّ بذلك فليس بيننا وبينه أي خلاف. واستمر رسول الله ﷺ يقرؤها، فلما بلغ السجدة سجد وسجدوا معه، وشاع الخبر أنهم صافوه؛ حتى إنّ الخبر وصل إلى الصحابة الذين بالحبشة، فركبوا البحر راجعين لظنّهم أن ذلك صِدْق. فلما ذُكر ذلك لرسول الله ﷺ

خاف أن يكون قاله فخاف من الله خوفاً عظيماً حتى أنزل الله عليه: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍ إلاَّ إذا تمنَّى ألقى الشيطٰن في أمنيته﴾ إلى قوله: ﴿عذاب يوم عقيم﴾.

فمن عرف هذه القصة، وعرف ما عليه المشركون اليوم، وما قاله ويقوله علماؤهم، ولم يميّز بين الإسلام الذي أتى به النبي ﷺ، وبين دين قريش الذي أرسل الله رسوله ينذرهم عنه، وهو الشرك الأكبر، فأبعده الله. فإن هذه القصة في غاية الوضوح، إلا من طبع الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، فذلك لا حيلة فيه، ولو كان من أفهم الناس؛ كما قال الله تعالى في أهل الفهم الذين لم يوفقوا: ﴿ولقد مكَّنّاهم فيما إن مكَّنّٰكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصٰراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصٰرهم ولا أفئدتهم من شيء﴾.

ثم لمّا أراد الله إظهار دينه وإعزاز المسلمين، أسلم الأنصار ـ أهل المدينة ـ بسبب العلماء الذين عندهم من اليهود، وذِكْرِهم لهم النبي وصفته، وأن هذا زمانه. وقدَّر الله سبحانه أن أولئك العلماء الذين يتمنّون ظهوره وينتظرونه، ويتوعدونهم به ـ لمعرفتهم أن العزّ لمن اتّبعه ـ يكفرون به ويعادونه؛ فهو قول الله سبحانه: ﴿ولمَّا جاءهم كتٰب من عند الله مصدِّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمَّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكٰفرين﴾. فلما أسلم الأنصار أمر رسول الله ﷺ من كان بمكّة من المسلمين بالهجرة إلى المدينة، فهاجروا إليها، وأعزّهم الله تعالى بعد تلك الذلّة؛ فهو قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطَّفكم الناس فئاوٰكم وأيَّدكم بنصره﴾.

وفوائد الهجرة، والمسائل التي فيها كثيرة، لكن نذكر منها مسألة واحدة، وهي أن ناساً من المسلمين لم يهاجروا، كراهة مفارقة الأهل والوطن والأقارب؛ فهو قوله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتَّى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفٰسقين﴾. فلما خرجت قريش إلى بدر خرجوا معهم كرهاً، فقتل بعضهم بالرمي. فلم علم الصحابة أن فلاناً قتل، وفلاناً قتل، تأسّفوا على ذلك، وقالوا: قتلنا إخواننا؛ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إنَّ الذين توفَّٰهم الملٰئكة ظالمي أنفسهم قالوا فيمَ كنتم قالوا كنَّا مستضعفين في الأرض﴾ إلى قوله:

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

فليتأمل الناصح لنفسه هذه القصة، وما أنزل الله فيها من الآيات، فإن أولئك لو تكلّموا بكلام الكفر، وفعلوا كفراً ظاهراً يُرضون به قومهم، لم يتأسّف الصحابة على قتلهم، لأن الله بيّن لهم ـ وهم بمكّة ـ لمّا عذبوا قوله تعالى: ﴿مَن كفر بالله من بعد إيمٰنه إلاّ مَن أُكره وقلبه مطمئنٌّ بالإيمٰن﴾.

فلو سمعوا عنهم كلاماً أو فعلاً يرضون به المشركين من غير إكراه، ما كانوا يقولون: «قتلنا إخواننا». ويوضحه قوله تعالى: ﴿قالوا فيمَ كنتم﴾، ولم يقولوا: كيف عقيدتكم أو كيف فعلكم؟ بل قالوا: في أي الفريقين كنتم؟ فاعتذروا بقولهم: ﴿كنّا مستضعفين في الأرض﴾، فلم تكذّبهم الملائكة في قولهم هذا، بل قالوا لهم: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾، ويوضحه قوله: ﴿إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والوِلدٰن لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّاً غفوراً﴾. فهذا في غاية الوضوح. فإذا كان هذا في السابقين الأولين من الصحابة، فكيف بغيرهم؟

ولا يفهم هذا إلا من فهم أن أهل الدين لا يعدونه ذنباً، فإذا فهمت ما أنزل الله فهماً جيداً، وفهمت ما عند من يدّعي الدين اليوم، تبيّن لك أمور، منها: أن الإنسان لا يستغني عن طلب العلم، فإن هذه وأمثالها لا تعرف إلا بالتنبيه. فإذا كانت قد أشكلت على الصحابة قبل نزول الآية، فكيف بغيرهم؟ ومنها: أنك تعرف أن الإيمان ليس كما يظنّه غالب الناس اليوم، بل كما قال الحسن البصري ـ فيما روى عنه البخاري: «ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي ولكن ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال». نسأل الله أن يرزقنا علماً نافعاً، ويعيذنا من علم لا ينفع.

٢

الإسراء والمعراج(*)

ثم أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس راكباً على البراق، صحبه جبريل عليه السلام. فنزل هناك، وصلّى بالأنبياء إماماً. وربط البراق بحلقة باب المسجد. ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فرأى فيها آدم، ورأى أرواح السعداء عن يمينه، والأشقياء عن يساره؛ ثم إلى الثانية، فرأى فيها عيسى ويحيى؛ ثم إلى الثالثة، فرأى فيها يوسف؛ ثم إلى الرابعة، فرأى فيها إدريس؛ ثم إلى الخامسة، فرأى فيها هارون؛ ثم إلى السادسة، فرأى فيها موسى، فلما جاوزه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي أن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنّة من أُمّته أكثر مما يدخل من أمّتي. ثم عُرج به إلى السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم، ثم إلى سِدْرة المنتهي، ثم رُفع إلى البيت المعمور، فرأى هناك جبريل في صورته، له ستمائة جناح، وهو قوله تعالى: ﴿ولقد رءاه نزلة أخرى * عند سِدرة المنتهى﴾. وكلّمه ربّه وأعطاه ما أعطاه، وأعطاه الصلاة، فكانت قرّة عين رسول الله ﷺ.

فلمّا أصبح رسول الله ﷺ في قومه وأخبرهم، اشتدّ تكذيبهم له، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس. فجلاه الله حتى عاينه، وجعل يخبرهم به ولا يستطيعون أن يردّوا عليه شيئاً، وأخبرهم عن عيرهم التي رآها في مَسْراه ومرجعه، وعن وقت قدومها، وعن البعير الذي يقدمها، فكان كما قال. فلم يزدهم ذلك إلاّ ثبوراً، وأبى الظالمون إلا كفوراً.

(*) مختصر سيرة الرسول، ١٦٩ - ١٧٠.

٣

ما في غزوة الطائف من الفقه(*)

فيها من الفقه: جواز القتال في الأشهر الحرم، ونسخ تحريم ذلك.

وفيها: أنه لا يجوز إبقاء مواضع الطواغيت والشرك بعد القدرة عليها يوماً واحداً، فإنها شعائر الكفر، وهي أعظم المنكرات؛ وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله، وكذلك الأحجار والأشجار التي تقصد للتعظيم والتبرّك والنذر لها وكثير منها بمنزلة اللات والعزّى، أو أعظم شركاً عندها، وبها.

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق، وتميت وتحيي. وإنما كانوا يفعلون عندها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتّبع هؤلاء سنن من كان قبلهم. وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم، وغلبة التقليد، وصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنّة، ونشأ في ذلك الصغير وهرم عليه الكبير، وطمست الأعلام، واشتدّت غربة الإسلام. ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمديّة بالحقّ قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

(*) مختصر سيرة الرسول، ٨٤ ـ ٨٥.

القسم الرابع

ملاحق

١

تاريخ ابن عبد الوهاب
والحركة الوهابية المبكّرة(*)

بسم الله الرحمٰن الرحيمن.

الحمد لله مبين المعضلات وكاشفها، ومنشيء الخليقة وبارئها، والصلاة والسلام على من أرسله من أعلى العرب وأشرفها، وعلى آله وصحبه النائلي الفضائل أحمدها، وبعد: فلا يخفى على ذوي الألباب والبصائر، وأهل الذكوة والذخائر، أن علوم الورى أشتات، وأن الحاصل منها خير مما فات، لهذا سنح لي أن أجمع كتاباً من السير حسب جهدي، فيما حكي عن أخبار الشيخ النجدي، محمد بن عبد الوهاب، ومن والاه بالاحتساب، ليقف عليه الأقصى، بالعدّ والإحصا، ومستمداً من الله حصول ما أنا فيه، ومن وثق به فهو كافيه، وهو مرتب على خمسة أبواب وخاتمة:

الباب الأول: في بدء أمر الشيخ النجدي وبيان أحواله وما هو عليه قبل الابتداع وإظهار نسبه وحسبه.

الباب الثاني: في بيان بدعته وسبب شيوعها في أرض نجد وموافقة محمد ابن سعود له باديء الأمر.

(*) عن كتاب: لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب. المغفل المؤلف، تحقيق محمد مصطفى أبو حاكمة، بيروت، دار الثقافة، ١٣ ـ ٨٥، ١٠٢ ـ ١٠٥.

الباب الثالث: في بيان نسب محمد بن سعود وحسبه وما كان عليه قبل اتباع محمد ابن عبد الوهاب.

الباب الرابع: في سلطنة محمد بن سعود وابنه عبد العزيز وولديه: سعود وعبد الله ابن سعود بعده وابتداء حكومتهم في نجد ونواحيها، بدواً وحضراً، وأسماء القبائل التي هناك، وبيان تسخير بلاد بني خالد والاحسا والقطيف والبحرين وقطر وعمان الصير وبعض بلاد عمان الظاهرة والباطنة وحروبهم وغزوهم أطراف العراق والشام وحلب.

الباب الخامس: في بيان تملكهم بعض الحجاز والتهامة وبلاد اليمن وبيان حدود بلاد نجد والحجاز وتهامة واليمن وأرض بني خالد وقطر وعمان، وما يتعلق بذلك من أسماء قبائل الحجاز وتهامة واليمن وعمان، وأسماء شعوب بني خالد وما كانوا به من الرياسة قبل ظهور محمد بن سعود.

وأما الخاتمة فهي في بيان جملة من فروع مذهب محمد بن عبد الوهاب وبعض أصوله. وسيأتي بحول الله على وفق ما أوعدنا به مفصلاً باباً باباً، تحت كلٍّ منها فروع وفصول إلى أن يكمل المأمول.

فصل في ذكر سياحة محمد بن عبد الوهاب

أنبأنا من يوثق به عن بعض المعاصرين للشيخ النجدي محمد بن عبد الوهاب أنه طلب العلم وهو حدث، وكان يبالغ في الطلب، ذكيُّ الفهم حريص التعلم، وكان يقرأ على يد رجل اسمه الشيخ عبد الرحمن بن أحمد من أهل بُريدة، هاجر من بلده إليها ولازم صحبته ست عشرة سنة حتى أدرك منه علوم الآلات من العربية، كالنحو والصرف والمعاني والبيان وعلم البديع، وقرأ عليه الحديث النبوي منه كتاباً البخاري ومسلم ومسند أحمد بن حنبل، رضي الله عنهم، ثم بعد ذلك اتبع الشيخ حسان التميمي في بلاد القصيم وتتلمذ على يده في علم الفقه والتفسير سبع سنين حتى صار ماهراً يرجع إليه في الفتوى. فلما بلغ عمره سبعاً وثلاثين سنة خرج من أرض نجد قاصداً البصرة، فحين دخل البصرة أخفى أمره ممّا هو فيه من العلم وتلبّس بثياب العبادلة، وجلس في مسجد محلة المجموعة مع أبناء السبيل، يرتزق من الناس شيئاً يمونه. وقيل إن بعض التجار من أهل نجد صادقه فعرفوه فأنكرهم لما سألوه عن حاله ومنزله. وكانوا يتحدثون

فيه في مجالس أهل البصرة ويقولون هَهنا شيخ من نجد كذا وكذا علمه وشهرته، فطن لبيب، لقيناه بالأمس فعرفناه وأنكرنا، فتحذّروا من أن يحدث في بلدكم شيئاً، وإنما قالوا ذلك عداوة له، لأنه أخفى أمره عليهم فلم يستحسنوه.

فتجسس بعض الناس عنه فاطلعوا عليه وسألوه عن شأنه فلم يجيبهم بشيء، فرفعوا خبره إلى الحاكم، وكان حينئذ عمر آقا متسلّم البصرة، فأرسل عقبه شروطاً فأتوه به، وأخذ يتحدث معه ويبدي له محبة وإكراماً، فرآه رجلاً فهيماً عاقلاً ذا فنون من العلم والأدب، فنادمه أياماً وهيأ له مسكناً ومؤنة، ورغب كثير من أهل البصرة بصحبته؛ وكان من جملتهم الشيخ أنس من كبار أعيان البصرة، فتحاسد الخلق حينئذ من صحبته، حتى قيل إنه من شدة ازدحام الناس عليه كان ينصب له كرسي فيجلس عليه والجماعة تحدق به، فيحدث بالأحاديث الغريبة ويفسّر بالتفاسير العجيبة. وقد أقام على هذا أربع سنين.

فلما عزل عمر آقا عن البصرة وحكمها جرجس آقا متسلّماً، ورفع القاضي شهاب الدين الموصلي من منصب قضاء البصرة، وجعل القاضي حسين الإسلام بولي مكانه، أنبيء القاضي حسين بخبر محمد بن عبد الوهاب وصيته فأرسل إليه: أني أريد زيارتك غداً، فقال: حباً وكرامة. فحين أصبح الصباح ركب القاضي حسين مع تلاميذه وحشمه حتى أتوا الشيخ محمد بن عبد الوهاب. فلما سمع بوصولهم إلى الباب قام فالتقى القاضي وعانقه، وأجلسه أعلى مجلس، فقال القاضي حسين: أيها الشيخ، بلغني عنك أنك تحدث الناس بأحاديث لم تعهد في كتاب العلماء، وتفسر القرآن بوجوه لم ينزلها رب السماء، أتريد أن تحدث أمراً في الدين، أم اشتبهت عليك طريقة المسلمين؟ فإن لم تمتنع عن تلك الشبهات الواهية وإلا فيهدر دمك ويهتك حرمك؛ فتعذر هو من القاضي، وحلف بالله أنه ما قال شيئاً مما نقل إليه وأخذ يظهر الإخلاص ويلتمس ويبدي العجز والانكسار ويقول: رجل غريب طالب علم حلّ بأرضكم إن رفقتم به فمثلكم من يكرم الضيف، وإن أسأتموه فلا ضرر ولا حيف.

فلما سمع القاضي حسين منه هذه الكلمات أمّنه، وسار إلى بيته. فلم تمض ثلاثة أيام إلا وقد أرسل إليه بأن الصلاح في شأنك، أيها الشيخ، أن تنزل عندنا وتكون مدرساً بالعربية وغيرها من الشرعيات بحضرتنا، ولك على ذلك وظائف وافرة. فبادر مسرعاً إلى إجابة القاضي، فأقام عنده يدرس بعض المترددين إليه في العلم الآلي والشرعي،

وتضرّع لدى القاضي أن يعلمه شيئاً من علم الهيئة والهندسة لأن القاضي حسين كان مشتهراً بعلوم الرياضة، لا سيما بهذين العلمين، فقرأ عليه تحرير إقليدس شرح المأمون العبّاسي وكتاب المجسطي والجقميني في الهيئة.

ولم يزل كذلك إلى أن مضى عامان، فخرج من البصرة مختفياً لم يعلم به أحد، وسار إلى بغداد، فالتمس القاضي حسين خبره فلم يعثر عليه حتى ألفاه جمعٌ من بغداد فنبأوه عن حاله وأنه بلغ بغداد، فقال القاضي حسين: أعوذ بالله من شر هذا الرجل وما هو فيه من الرأي، كاد أن يهدم الشريعة لولا أن خاف على نفسه، وستعلمون ما يكون منه بعد ذلك.

وأما هو، أي الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد دخل بغداد ونزل مدرسة الوزير واشتغل بدرس علم الكلام على يد الشيخ عبد الرحيم الكردي الشافعي، وقرأ عليه كتاب صحائف الأعمال ومقاصد التفتازاني.

حكى لنا رجل بغدادي أن محمد بن عبد الوهاب أقام ببغداد في المدرسة المعروفة بمدرسة الوزير سنتين لم يخرج منها إلى سوق أو شوارق قط. ثم إنه طلع يوماً من المدرسة بعد السنتين، فسلك طريقاً لا يدري أين يمضي، حيث إنه لا يعرف أحداً من بغداد، فمرَّ بمحلة منها رأى هناك جمعاً من الناس يتخاصمون في ميراث بينهم ولم يعرفوا قسمته، فقال لهم، أنا أدفع النزاع وأبين الأوزاع، فقبلوه حكماً. فسألهم كم أنتم من الورثة؟ فقالوا: أربعة رجال وخمس نسوة. قال: المال كم هو؟ فقالوا كذا وكذا مثلاً، فقسم بينهم حسب القسمة الشرعية، وكان هذا النزاع بينهم أياماً عديدة لم يرتضوا في فصله على حكم أحد، وكان بتلك المحلة مسجد جامع كبير، وعليه وقف كثير، فأشار إليهم أن يقيم عندهم ويصلي بهم الجمعة وبقية الفروض اليومية، فاتفقوا على ذلك وأسكنوه منزلاً وتزوج منهم امرأة ذات مال وجمال، فلبث عندهم ثلاث سنين وقد ماتت زوجته، فقيل ورث منها مقدار ألفي دينار.

وفي العام السادس من وصوله بغداد سار منها إلى كردستان حتى دخلها ولم أدر أي مدينة أم أي قرية حلَّ فيها، إذ الراوي لم يعين لي اسمها، وأنا ملتزم في هذه الأوراق أن لا أقول إلا ما سمعته وحققته. فاستقرى ديار الأكراد بلداً بلداً وقرية وقرية سنةً بتمامها، فخرج يريد الإيران حتى بلغ همذان، فأقام بها سنتين يدرّس ويدرس.

ومن عجيب حاله أنه كان يغير اسمه في كل بلد، قيل سمّى نفسه في البصرة بعبد

الله، وفي بغداد بأحمد، وفي الكرد بمحمد، وفي همذان بيوسف، وهكذا لم يزل يتخذ التورية والإبهام.

فسار من همذان إلى أصفهان وسكن المدرسة العباسية التي بناها شاه عباس الصفوي، وكان ذلك آخر عهد الصفوية وأول سلطنة نادر شاه. وطلب هناك علم الحكمة المشّائية على يد ميرز اجان الأصفهاني المحشّي على شرح التجريد. فقرأ عنده شرح ملاّ علي القوشجي على التجريد ثم قرأ شرح المواقف للسيد الشريف الجرجاني، ثم قرأ حكمة العين. فلم تمض أربع سنين إلا وقد كمل في علم حكمة المشّائية، وشرع يدرّس فيها، وهو مجهول الحال لا يعرف أهل أصفهان هو من أي الممالك والطوائف. وكانوا يقولون: ما رأينا عربياً يستكمل في علم الحكمة غير هذا الرجل. ثم إنه أقام بعد ذلك بأصفهان ثلاث سنين يطلب فيها علم حكمة الإشراقية ومسالك التصوف.

وإني سمعت بعضاً من أهل البصرة يقول: حدثنا رجل عجمي أصفهاني عن أمر محمد ابن عبد الوهاب أنه بعدما تمرّن في الحكمة الإشراقية وعلم التصوف جلس في الخلوة واعتزل عن الناس ستة أشهر. ثم مرّ يوماً بسوق من أسواق أصفهان وعليه جبة خضراء، ورأسه مكشوف كأنه قد جُنّ، فاعترضه بعض من كان يعرفه قائلاً: لم صيّرت نفسك على هذه الحال؟ فقال: كنت أعرف نفسي قبلُ لا غير، والآن عرفت ربي فأردت أن أميز بين الحالتين فكشفت رأسي، ولولا أن يعاب عليّ بأكثر من ذلك لتجرّدت من ثيابي وفارقت أحبابي، وجعل هكذا يقول بيديه يميناً وشمالاً فتتبعه جماعة يقتفون أثره إلى أن دخل منزله واستقر، واستأذنوا بالدخول فأذن لهم، فقالوا: أيها الأستاذ المرشد والمعلم المنجد، أرشدنا إلى ما أنت فيه فإننا من هذه الساعة قبلناك، وفي هذا الوقت عرفناك، وكانوا عشرة أنفار، فبدأ يعلمهم التصوف وطريقه، واستمرّ على الإرشاد واستجذاب المريد سنة كاملة، فهجس في نفسه بالحدس أنه إن عُرِفَ ببعض ما هو عليه يقتل ويصلب لأنه كان يقول لمريده: ليس على الحق غيرنا.

لكنه خرج من أصفهان قاصداً الري فمرّ بقرية من قراها وكان معه بعض الدراهم، فقصد بيت أحد منها ليشتري له متاعاً، حيث إن القرية لا سوق فيها، فلما رآه صاحب البيت قال له: ادخل فدخل. قال: بمَ أتيت؟ قال: أشتري متاعاً. فقال صاحب البيت: قم ههُنا حتى آتيك بالمتاع. فخرج صاحب البيت وسار إلى كبير القرية شاكياً إليه أن هذا رجل عربي قد غصبني مالاً كذا وكذا في سنة حجي في أرض نجد، والآن قُدِّرَ

عليه فوقع في بلدتنا، وهو الساعة عندي في بيتي جاء ليشتري متاعاً. فقال رئيس القرية لخادمه: أحضره عندي، فأحضره. فقال له: هكذا فعلكم أيها العرب الأشرار تتعرضون من يقدم بلادكم وتغصبونه حقه وماله؟ والله لا تبرح حتى توفي كلَّ ما أخذته من هذا الرجل، خذوه فغلّوه. فحين سمع محمد بن عبد الوهاب ذلك، قال لرئيس القرية: أبلدتكم هذه قصدها أحدٌ قبلي أم هذا أول الأمر؟ وإنما قال له ذلك ليطول معه الكلام ليبين له الحال، لعلّه يرق إليه ويعدل. فأجابه الرئيس: هذا كلام لا نسمعه ولا نجيب عنه. أما المال فلا بدَّ من أدائه، فأتوا بالخشب فشدوه وضربوه.

ولما عرف محمد بن عبد الوهاب انه لا يقبل منه سؤال، ولا يسمع له مقال، وأنه ملزوم ومظلوم لا محالة، قال: سله كم ذا يطالبني به. فقال كذا كذا وإذا هو مبلغ خطير. قال الراوي: حاصل الأمر أنهم أخذوا منه كلَّ ما عنده من الدراهم والأسباب، غير الكتب حيث لا غرض لهم بها؛ فخرج من تلك القرية هو ومريده، رجل بغدادي اسمه علي القزاز، فبلغ قُمّ وبقي فيها شهراً كاملاً لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحداً، محتاجاً قليل الحيلة، قد باع من كتبه لمؤنته. فخرج منها ناحياً نحو الروم، فالتفق مع ركب من الروم من أهل أبي لباس فأصحبوه، وكانوا يسرون الفيافي، وهو يحدثهم ببعض الأحاديث العربية، ويفسرها لهم بلغتهم التركية، فأعجبهم صنيعه وفصاحته، عربيةً وتركية، فلما بلغ معهم أبا لباس أكرموه وجمعوا له مالاً جزيلاً، حيث متعوه وأقاموا بجميع ماله من الواجب، ومشى على طريقته، مذهب الفقيه المجتهد أحمد بن حنبل جمع كثير من أبي لباس، ولم يحدث هذا المذهب في أبي لباس قبل مجيئه، بل كانوا على مذهب أبي حنيفة (رض) - كما هو المشهور في بلاد الروم -.

ثم سار من أبي الباس إلى حلب، فأقام فيها ستة أشهر يدرس بالعربية، فسئل عن علم الحكمة فقال لا أدريها، وهذا من عجايب شانه، أنه يظهر الأمر أحياناً وأماكن وتارة يخفيه.

ثم إنه ذهب من حلب يستتبع قرية قرية إلى أن دخل دمشق الشام، فلبث فيها سنة، ولم يذكر لي ما جرى له فيها.

ثم مضى منها إلى قدس الخليل، فبقي هناك شهرين. قال بعض من حدثنا عن خبر محمد بن عبد الوهاب يقول: خرج من زيارة بيت المقدس وعمد إلى مصر فأقام فيها سنتين وأياماً قلائل وكان مسكنه الجامع الأزهر في المدينة القاهرة، وتعلم هناك علم

الاسطرلاب وعلم الأعداد على يد الشيخ محمد الملقب بزين الدين المكنى بأبي عبد الله المغربي.

ثم انه انحدر إلى السويس وركب السفينة فأتى ينبع فنزل هناك، ثم دخل المدينة المنوّرة فلبث فيها أياماً قليلة فصادف بذلك أيام الحج، فحج بيت الله الحرام. قيل إنه اجتمع مع الشيخ عبد الغني الشافعي وكان حينئذ هو مفتي مكة شرفها الله تعالى، فتباحث معه فاعترف الشيخ عبد الغني بفضله وكماله، وكان ذلك أيام دولة الشريف سرور، فطلب منه الشريف سرور وأعيان أهل مكة البقاء هناك، فأبى؛ فخرج من مكة يريد نجداً. فلما وصل بريدة عرفوه فأكرموه غاية الإكرام واستخبروه عن حاله وسياحته هذه المدة، فأخبر بالأمر كله، وسار منها إلى العيينة، فهجم عليه جمع يقبلون يده فمنعهم، وكانوا يقولون: مولانا وملاذنا، على ما هو عادة الناس في عرفهم مع العلماء والأكابر. فقال لهم: لا أرى أحداً يستحق ذلك اللقب إلا الله تعالى.

فأقام بالعُيَينة يوماً أو بعض يوم، فسار إلى العارض من نجد لأن هناك مولده وأصل مسكنه، فوطىء بلدته المعهودة وهي اليمامة، وهي التي تنبأ بها مسيلمة الكذاب في أيام رسول الله ﷺ سنة الثامنة من الهجرة، وتبعه بنو حنيفة على ذلك تشريكاً له ولمحمد ﷺ بالرسالة، وحين ولي الخلافة أبو بكر (رضي الله عنه) أرسل جيشاً من الصحابة والأنصار إليه من طريق اليمن حتى دخلوا نجداً فحاربوا بني حنيفة قوم مسيلمة في اليمامة، فظفروا بهم وقتلوهم وأسروا منهم خلقاً كهيراً كما نصَّ عليه ابن الخلّكان والطبري وابن الجوزي في تواريخهم.

* * *

فصل في بيان نسب محمد بن عبد الوهاب

حدثنا عبد الله بن غنّام الإحسائي، أخبرنا محمد بن ماجد أنبأنا محمد بن ماضي النجديان، والكلُّ ثقة، أن محمد بن عبد الوهاب هو من بني سنان قبيلة من تميم. فهو محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن علي بن سعد بن سلمة بن فلاح بن عبد الواحد ابن حميد بن سالم بن سنان بن عبد الله بن حجلان بن عمر بن وهب بن نافع بن زيدان بن عامر بن مالك بن عدي بن سرداح بن كعب بن زيد بن عبد الله بن جعدة

ابن معاوية بن قيس بن ربيعة بن صعصعة بن عامر بن بكر بن هوازن بن امرىء القيس ابن زيد مناة بن تميم. هذا ما صح من نسبه والله أعلم.

فصل في بيان حسب محمد بن عبد الوهاب

النَّسبُ ما يعدّه الإنسان من مكارم ومفاخر الآباء، والحسَب ما يعده من مكارم ومفاخر نفسه. فأمّا حسبه: أنه كان عالماً جليل القدر كما مرّ بيانه في ذكر سياحته. قال المخبرون: وكان من بعض أخلاقه قبل ظهور بدعه أنه ما مرَّ بأدنى أو أعلى إلا وسلّم عليه متهلّلاً، وكان ينهى عن الفحشاء إذا قدر المنع، وكان يقنع بالعيش القليل إذا لم يجد بيسر غيره.

يُحكي انه جاء يوماً قبل السياحة مجلس قوم يتحدثون بأحوال الدنيا وجمع المال وأنّ حصول التفنّن في المعاش به. قال رجل منهم اسمه سليمان بن راشد العُنيزي، وكان رجلاً تاجراً مشهوراً بالخير في تلك الناحية، لمحمد بن عبد الوهاب: أنت رجل قليل المال وكثير العيال، وكان تحت محمد بن عبد الوهاب حينئذٍ ثلاث نسوة، وابنان وبنتان، هذا أعطيك كذا وكذا قدراً من مالي خذه، فسافر به إلى بلد الروم إلى نواحي حلب أو الشام، ولك في المضاربة النصف من النفع، وإن كان غيرك يُعطى الثُلث، كرامةً لك؛ فأشار عليه أهل المجلس قاطبة بقبول ذلك وبالسّير فيه فلم يقبل، وقال: إن اشتغلت بالتجارة بقيت بأسر الذلّ والطمع، وفاتني فراغة البال في تحصيل العلم والعمل، مع أن الرزّاق يُهيّيء الرزق فلا أسعى في طلبه بوجه مليءٍ ومُتعب.

وكان له بستان نخلٍ وكرمٍ يستعيش به كبقية أقوامه، فإن غالب عيشهم من زراعة النخيل والحبوب، وكان له بقرات، قيل عشر وقيل عشرون، يحلبهنّ ويجمع سمنهنّ للبيع. فالمراد أنه ليس بطلابٍ لجمع المال الكثير، وإلا لما عدل عن سبيله، لما بيّناه، وروينا عن بعض أهل نجد يقول: كان محمد بن عبد الوهاب، يقري الضيف ولم يعهد أنه يوماً تغدّى، أو تعشّى، في داخل بيته عند عياله إلا نادراً، وإنما كان يأخذ سفرته وخوانه، يضعها في صهيوة له خارج بيته، وهذه عادة أه، نجد يبنون صهوات خارج بيوتهم يسمّونها مضايف. وكان من عادته أنه إذا أضافه أحد ثم أراد الذهاب، متّعه بشيء قدراً مُيسّراً، هذا لا يفعله غيره من أهل تلك البلاد، وقيل إنّه يوفّر حقَّ الجار على نفسه ولم يسمع له شتم لأحد؛ انتهى.

باب [في التوسع الوهابي في الجزيرة]

حدّثنا بعض الثقات المعاصرين لمحمد بن عبد الوهّاب وقد أدركناهم شيوخاً في الزبير والكويت يقول: حقيقة الأمر في بدعة محمد بن عبد الوهّاب أنّه لمّا رجع من سياحته المدّة المعلومة واستقرّ ببلدته وكانت ضعيفة بالنسبة لسائر بلدان نجد، وكان الناس تفرّ منها، بسبب ظلم حدث فيها، بجور حكامها وولاتها، وكان فيها التعدّي معروفاً دون غيرها، وقد زاغت قلوب أهلها عن الوفاق، وامتلأت من النفاق، حتى قيل إن اليمامة كان يسكنها خلق كثير، بقدر ستة آلاف بيت أو أكثر، وكانت بأيّام محمد بن عبد الوهّاب يسكنها ثلاثمائة بيت.

قال بعض المحدّثين الثقات: لما أراد محمد بن عبد الوهاب ظهور البدعة، جلس في بيته ثمانية أشهر، معتزلاً عن الناس ينظر في الكتب دائماً، فحين مضت المدّة، خرج على الناس يوماً وفي يده كتاب صغير الحجم فقال: أَشهدوا الله أني مقتفٍ ما في هذا الكتاب، وأنا أقول إن الذي سُطر فيه هو الحق لا غير. فقام رجل اسمه علي بن ربيعة، وهو من كبار بني تميم، من قبيلة بني سعد، فقال له: يا محمد، أنت رجل شريف في قومك، لا تقل ما ليس حقاً، فتندم بوقوع الفتنة بين الناس. قال: هذا الكتاب، اقرأه فإن وجدت فيه خللاً عاتبني به. فأخذ الكتاب وجعل ينظره من أوّله إلى آخره، ثم ردّه إليه قائلاً: هذا حقّ فبيّن لنا كيفية سلوكه، وما ينبغي أن يُتّبع بسبب رواجه. فقال له محمد بن عبد الوهاب: طريق رواج هذا الأمر النصيحة وبذل المعروف. فقال له عليّ بن ربيعة: فإن لم يَجر بذلك، قال: بالسيف. فقال له: كيف يستحق القتل من لا يتبعه؛ فقال: لأنه كافر مشرك. قال: أتقول هذا؟ قال: نعم، وهو اعتقادي.

فتفرق المجلس ورجع هو إلى بيته فجاءه ابن عمّه عبد الله بن حسين، قال له: أحق ما نقلوه عنك يا ابن عمّي من الخروج بهذا المذهب؟ فقال: نعم. قال له: والله والذي لا يُعبد غيره، إن دعوتَ أحداً من بني سنان إليه، لأختطفنّ رأسك. فوقع بينهما تشاجر وجدال، فأومى عبد الله إليه بالسيف فأصابه بيده، كاد أن يبريها، فقام بعض بني أعمامه ليمنعوه، فوقعت الفتن بين قبائل تميم اليمامة. قيل قُتل ذلك اليوم حماد بن رشيد السعدي وصالح بن فهد السنّاني وجُبير بن ناصر النهدي وسبعة نفر لم يُسَمَّوا بأسمائهم إلا أنهم من بني سنان خاصة.

قال الراوي: ثم بقي محمد بن عبد الوهاب سنة كاملة في اليمامة قائماً بما هو فيه من

الدين، ولم تبرح الفتنة بين القوم بسببه، فبعض يصدقه وآخر يكذّبه، إلى أن صار القوم الذين نصروه أذلاّء، فانهزم منهم أناس وآخرون قتلوا، وبعض لبثوا في بيوتهم وحصونهم، وشاع أمره في أرض نجد. فسمع بذلك سليمان بن شامس العُنيزي، وكان كبير قومه البداة، وكانوا ينزلون طرف العارض، فأرسل إلى كبار اليمامة من تميم وغيرهم: إنَّ هذا أمر حدث عندكم، وقد أخرجه فلان العالم منكم، فإياكم ومتابعته، ولا تجعلوا له مسكناً ولا مأوى في اليمامة، فإن بلغني عنكم إبراره وإكرامه ومنعته، لأركبنَّ عليكم برجال وفرسان، ولأجولن عليكم بعنزة كلها. فلما بلغ أهل اليمامة كتاب سليمان بن شامس قال بعضهم لبعض، يجب علينا امتثاله فإن عنيزة قوم ذات حرب وصولة، ونحن قليلون لم نبلغ معشارهم لا رجالاً ولا مالاً، وإن ما دعانا له سليمان حق لا يبغي العدول عنه ولا التهاون فيه، مع أن محمد بن عبد الوهاب ليس بعزيز علينا كعزة أنفسنا وأعراضنا، كيف وهو أتى ببدعة كفر، وقصد تكفير المسلمين بها. فاتفق رأي الجميع على إخراجه من بيته قهراً، حتى بنو أعمامه عزموا على ذلك، فنادى منادٍ يوم الجمعة أن بعد صلاة الجمعة اجتمعوا على إخراج محمد بن عبد الوهاب من بلدتكم فإن أبى فاقتلوه، فلما سمع أخوه علي بن عبد الوهاب، وكان هو غير عالم وحقيراً بينهم، جاء إلى أخيه محمد بن عبد الوهاب وقال له: يا أخي أنصحك لله أن تطلع هذا اليوم من اليمامة وتمضي إلى حيث شئت، فإن أرض الله واسعة. وإن كان هذا الذي ادعيته حقاً فالله يسخر قلب أحد من خلقه ليبديه ويحميه. فاستحسن رأي أخيه علي وقال: كيف المسير هذا في وسط النهار، وأنا لا أخرج من بيت عشيرتي وقومي وبلادي إلا بجميع أهلي وعيالي ومالي، وأخشى أن يتعرضني أحد من سفهائهم والغيرة تمنع القبول بذلك. اذهب إلى علي بن ربيعة وعبد الله بن حسين وخذ لنا ذمة وأماناً منهم، فإن أعطوك ذلك خرجنا هذه الساعة، والله المعين وإن عرفت منهم ما ينكر الحال فالله المستعان لم نزل في حصننا هذا، ودفع الصائل واجب. وإنما خص علي بن ربيعة السعدي وعبد الله بن حسين السناني لأنهما هما اللذان يخافهما ولأنهما المتوليان زمام القبائل التي في اليمامة من بطون تميم. فسار أخوه علي بن عبد الوهاب إليهما فأتاهما وقد تمت صلاة الجمعة، وقد خرج الناس من المسجد الجامع بأسلحتهم مصممين على أن يمشوا دفعة على حصنه ويأسروا عياله، ويأخذوا ماله ولا يرضوا له بأمان إلا على نفسه وحده، بأن يخرج من ساعته. قال بعض من أخبرنا بهذه

القصة: ان محمد بن عبد الوهاب كان عنده مال كثير قد جمعه من سياحته وقد عرف أهل بلاده به وكان معه خدم سبعة أو ثمانية عبيد سودان اشتراهم من مكة، وكان كل منهم محارباً مسلحاً يظن به النجدة، وكان معه ولداه اللذان ولدا له قبل سياحته، وهما ناصر وعبد الوهاب، وكان معه أربعة رجال من بني عمه القريب، ابنا حسين بن محمد، اخوة عبد الله بن حسين، الذي ذكرناه، لهذا كان يحسب عصمته عن الأعداء بهم، ويَهُمُّ أن يقاتل في حصنه محاصراً. فلما قال أخوه علي بن عبد الوهاب لعلي بن ربيعة وعبد الله بما قال لهم به، قبلا على ذلك، فذهب إلى محمد بن عبد الوهاب وقال له: هذه ذمتهم قد أعطوك إياها، فهيّأ نفسه وعياله ومن تبعه للخروج.

فخرجوا ذلك اليوم قبيل غروب الشمس، فأتوا الوادي، وهو قرية محمد بن سعود، وكان جملة ما فيه من السكنى سبعين بيتاً، وهو الموضع الذي يسمى الآن الدِّرْعيّة، سُمّيَ بذلك قيل لأن بعد عمارته، وكثرة اجتماع الناس فيه، بعد تسلط عبد العزيز صار وضع البلد مشبَّهاً بالدرع الذي هو لغة القميص، وقيل مشبهاً بالدرع الذي هو لباس الحرب المعروف. فسمع محمد بن سعود بورود محمد بن عبد الوهاب، وكان قبل هذا قد سمع بصيته وإظهاره مذهباً جديداً فجاء إليه، وصافحه وقال: هذه القرية قريتك والمكان أنت واليه، فلا تخش أعداءك؛ والله لو انطبقت علينا جميع نجد ما أخرجناك عنا، فقال: أنت كبيرهم وشريفهم، أريد منك عهداً على أنك تجاهد في هذا الدين، والرياسة والإمامة فيك وفي ذريتك بعدك، وإن المشيخة والخلافة في الدّين فيَّ وفي آلي من بعدي أبداً، بحيث لا ينعقد أمر ولا يقع صلح ولا حرب إلا ما نراه كذلك، فإن قبلت هذا فأخبرك ان الله يطلعك على أمور لم يدركها أحد من عظماء الملوك والسلاطين، وتكون عاقبة أمرك محمودة عند الله، لأنك اتبعت الدين ونصرته، ولم تقصر رتبك عن رتبة الصحابة والخلفاء الذين نصروا رسول الله ﷺ، وأي منزلة أعلى من هذه؟ فقال محمد بن سعود: قبلت وبايعتك على ذلك، فتبايعا واشترط كل منهما على صاحبه ما اشترط عليه، فأخلى محمد بن سعود بيته نفسه لمحمد بن عبد الوهاب وجلس هو في بيت أخيه عمر بن سعود. فأقام محمد بن عبد الوهاب، يدرّس كل يوم في كتابه الذي صنّفه في التوحيد وردّ على أهل الملل فيه وسماه «كتاب التوحيد». وكان يجلس للدرس في بيته، ومضى على هذه الحالة سنة، يرغّب أهل الوادي في ذلك المذهب ويحرضهم على الصبر بعداوة

من يخالفه. فلما تمت السنة صار أهل الوادي كلهم كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم على دينه وتحت طاعته إلا أربعة رجال منهم، سماهم الراوي بأسمائهم ياسر بن أحمد وسيّار بن ضحيان وعبدان بن صالح وموسى بن حسيم، فإنهم خرجوا بأهاليهم وعزّ عليهم مفارقة دين المسلمين الذي كانوا عليه، فسكنوا [بلدة من] بلاد القصيم يقال لها ثرمدة.

ثم إن محمد بن عبد الوهاب قال لعبد العزيز: ابنوا لنا مسجداً كبيراً ليحضر جميعُ رجالِ القرية فيه، عند كل صلاة، فإن الدين لا يسع غيره هذا. فأمر محمد بن سعود ببنائه وهمّ أهل الوادي بالبناء حتى تم فقال: ينبغي أن لا يفرش في هذا المسجد إلا الحصيات لأن مسجد الرسول كان كذلك؛ فأخذ يأمر الناس بالذهاب إلى المسجد لأجل الصلاة فيه جماعة. وكان يقول ابتداء: كل من لا يحضر الجماعة مع قدرته عليها، عزرناه.

ثم إنه وضع درس «كتاب التوحيد» في المسجد صباحاً ومساء كل يوم. وكان يأمر النساء والصبيان بحضور الدرس ليستمعوا قواعد التوحيد منه. وقد نقل لنا أن رجلاً من أهل الوادي ما كان يحضر الدرس فأمر محمد بن عبد الوهاب بإحضاره، فقال له: لم لا تحضر الجماعة للدرس؟ فأخذ الرجل يتعذر، فقال محمد بن عبد الوهاب: لا بد لقبول توبتك من أن تحلق لحيتك أو تغرم مائة ذهب. وكان الرجل متوسط الحال، فرضي بأداء المال لأن حلق اللحية أقبح ما يكون شرعاً وعرفاً عربياً.

وحدثنا رجل من أهل الدرعية يوثق بقوله أن محمد بن عبد الوهاب أول أمره لما خرج عن قومه ومنزله بما أراده من الأمر جلا إلى العيينة قبل وصوله الدرعية واتفاقه مع محمد بن سعود، فالتجأ إلى عثمان بن معمر التميمي، حاكم العيينة، فاتفقا على إقامة هذا الأمر والدين، والعمل بالشرع الشريف، إذ لا ينفع علم بدون عمل قط، واجتمعا على أن يبطلا جميع ما سوى هذا المذهب من المذاهب الإسلامية وغيرها عموماً، ووافقهم على ذلك كثير من أهل العيينة من وجوه البلد وأعيانها من خدم ابن معمر وحشمه، وبعض الناس الذين هناك لم يرضوا به. فاستمر محمد بن عبد الوهاب مدة بالعيينة، وربما بعض القوم من بلاد نجد لما سمع بصيته أتاه إلى العيينة وبايعه، وتاريخ وقوع هذا الأمر في سنة آخر الخمسين بعد المائة والألف. وأما أكابر ومشايخ سائر نجد فلم يرضوا بشيوع هذا الدين وإذاعته، لأنه يفسد عليهم قوانين كلية، وقواعد أصلية،

وضعت عليها حكومتهم، إذ بلاد نجد وقبائلها إذا قلت لا ضابط لها محتو على الكل، ولا هناك رئيس قاهرٌ يردع الظالم وينصر المظلوم، بل كان كل من الحكام ـ حاكم بلدة مدينةً كانت أو قرية وفي بدو كذلك ـ كلّ طائفة منهم لها شيخ وكبير يرجع أمرهم إليه، والبداة إذاً قبائل شتى يرعون البراري والقفار ويشربون المناهل والآبار، وحكومة كلّ شيخ في قبيلته برضاها فكلّ من تقدم كرماً وشجاعة ورضوا به كبيراً لهم؛ وفيهم مشايخ صغار من نفس قبيلة واحدة يخالفون رأي المشايخ الكبار؛ وكان البدو يتحاكمون في قصصهم وحوادثهم إلى العرف لا إلى الشرع، وقد يأخذ العرف منهم الرشوة وهي حقيقةً ما يعطى لإبطال الحق، وأولئك الحكم طاغوت لكونهم يصدون الناس عن اتباع حكم الشريعة. وأما الحضر من أهل النجد فمرجعهم إلى الشرع في فصل الخصومات والدعاوى ما عدا وادي الدواسر وجبل شمّر لأنهما إلى البدو أقرب منهما إلى الحضر؛ وكان الحضر أهل المدر من نجد دائماً بعضهم يحارب بعضاً على حسب مقتضى الحال وصلاحه بنهج ما قررناه فيما مرّ من أنّ كل حاكم له حوزبة خاصة، فإذا أراد ملك غيره تسخيراً حورب من جميع البلدان، وهكذا الشأن بينهم أبداً؛ وقد يقع بينهم ـ كل أهل البلدان ـ صلحٌ إذا قطع الطمع ظاهراً. فلما حررناه غضبت حكام نجد مطلقاً إلا من عرفتَ منهم وهو عثمان بن معمر وصاحب الدرعية محمد بن سعود كما ستقف على حقيقة الأمر.

وحين رأى أكابر نجد ما صدر من محمد بن عبد الوهاب وما يخشون من عاقبة صنعه شكوا ذلك إلى سليمان آل محمد الحميدي الخالدي حاكم بني خالد والأحساء والقطيف وقطر كلها، فالتمسوا منه أن يمشي على والي العُيَيْنة ويُجليه من بلده. وإنما استمدوا من سليمان هذا لأنَّ أهل نجدٍ قاطبة لم يدركوا عثمان بن معمر ذلك الوقت إذ هو في غاية المنعة والنصرة وكثرة الجنود والمال الكثير لأن بلاده أكبر مدن نجد وأكثرها محصولاً وخراجاً، وأهلها أطوع لحاكمهم من غيرهم. فلما بلغ خبر محمد بن عبد الوهاب إلى سليمان آل حميد بما بلغه، كتب كتاباً إلى عثمان بن معمر أنْ أخرجْ هذا الشيخ النجديَّ من بلدك إلى آخر جزيرة العرب أو أرسل به إليّ وأنا أبصرُ به. فإن لم تجبني إلى أحد هذين الأمرين أقطع وظائفك التي لك في الأحساء وأمنع جباتك عن تحصيل مالك من النخيل فيها جزماً، وكان لابن معمر عثمان في الأحساء ملك نخيل وأرض رنزٍ تورثها عن أكابره وأجداده يبلغ محصَّلها كلَّ عامٍ ستين ألف ريال وذهب،

وذكر له أيضاً: بأني أمنع تجار بلدك عن الترداد إلى أطرافنا من الاحساء والقطيف وسواحل قطر كالزبارة وغيرها، بل أمنعهم السفر عن كل بلدٍ أنالُهمْ فيها. وكان إذاً سليمان آل محمد له يدٌ طولى في أرض العرب سيما في نواحي العراق مما يلي نجد وفي نجد نفسها أيضاً، وكذا أطراف الشام إذ معسكره كبير ودولته عظيمة وشجاعته معروفة وقومه الخوالد أهل بأس شديد وخلق عديد وكان يغزو نجداً إن لم يرضه كل واحد من حكامها بشيء. فلما وصل كتاب سليمان بن محمد الخالدي إلى عثمان ابن معمر التميمي صاحب العيينة اهتمَّ وكره عداوة سليمان آل محمد وغضب أيضاً لخروج محمد بن عبد الوهاب عنه، لكنه ارتكب أخف المحظورين بإبداء المعذرة لدى محمد بن عبد الوهاب خفيةً فقال له: إن محاربة هذا الرجل، يعني سليمان آل محمد، تصعب علينا أول الأمر وقد أكّد القول بكيت وذيت، فالرأي بعد هذا أن تسير من العيينة على بركات الله إلى أي بلدٍ شئت من أرض الله وتقيم فيها سنة أو سنتين حتى نرى كيف يفعل الله بعد ذلك ثم مرجعك إلينا. فقال محمد بن عبد الوهاب: أنت لا تخش من هذا الكلام، فإنّ الله ناصرك، وإن جميع المحاصيل التي انحبست عنك أنا أُسلمها لك كلَّ عام وادع أن يجري هذا الأمر رغماً على أنف المكره له. ولكن بعد ما بذل محمد بن عبد الوهاب النصائح لعثمان بن معمر بأن يواظب على هذا الدين وترويجه عرف أن عثمان لا يمكنه الآن الاستقامة عليه ظاهراً. انتقل محمد بن عبد الوهاب من العيينة إلى بلد الدرعية، وكان فيها إذاً محمد بن سعود. فلما وصل قريبها بمسير نصف ساعة أُخبِرَ محمد بن سعود به فخرج يتلقاه هو وابنه عبد العزيز وكثير من أهل بيته وأهل بلده بالقبول والإكرام، فأنزله أعلى مقام وأخلى بيته لأجله، وبايعه على تقويم هذا الدين وترويجه. ثم إنه اشترط لكل واحد منهما على صاحبه ما اشترط وأكدا الأمر بالحلف والعهود والمواثيق واتخذا على ذلك شهوداً فصفا الأمر بينهما باطناً وظاهراً، فصارت الإمامة الكبرى وهي إمامة الدّين لمحمد بن عبد الوهاب وكذا ما يتبعها من مصالح الدنيا كتدبير الحروب والمصالحة والعداوة وما يرجع إلى آلة الحرب وما يتعلم لأجله حيث إن محمد بن عبد الوهاب كان عاقلاً مدبراً مستملئاً في الأشياء، عارفاً في جميع العلوم؛ ومن جملة نكته التي تشعر بتدبير الحروب انه كان يأمر بتعلم أهل الدرعية برمي البندق وهو الذي استخرج لهم هذه البناديق التي الآن لهم، وكانوا قبل في نجد لهم تِفْقان دون هذه على طور ما لأهل اليمن. والحاصل أنه

صار الأمر كله بيد محمد بن عبد الوهاب بحيث كل شيءٍ أراده محمد بن سعود أو أولاده رجعوا به إلى محمد بن عبد الوهاب فإن ارتضاه ارتضوه وإن أباه أبوه بلا كلام. وكانت العادة جارية بأنَّ ومحمد بن سعود يزوره كلَّ يوم مرتين صباحاً ومساء هو وابنه عبد العزيز وبقية أولاده، وكانوا يجلسون عنده متئدين صامتين لا ينطقون بشيء ما لم يحادثهم به أولاً، ويدرسون على يده علم التوحيد الذي صنَّفه، لكن يُدَرِّسهم درساً خاصاً في مجلس على حدة.

ثم إن أمر محمد بن عبد الوهاب قوي قوةً تامة وصار جميع أهل الدرعية في قبضته، وكذلك من حواليها من القرى وأهل الرساتيق.

اتفق الأمر حينئذٍ أنّ دهام بن دواس شيخ الرياض، المسمّى بحجر اليمامة سابقَ الأيّام، كره استقامة الأمر لمحمد بن سعود حاكم الدرعية بواسطة بدعة محمد بن عبد الوهاب حيث إنه كان قبل هذا يكره محمد بن سعود ويريد ذلّه، لأن أهل الدرعيّة أشرُّ أهلِ نجد في طرق الحيل والخدعات، وأعظمهم [فيها] حقناً وعداوةً. فأخذ ابن دواس يلقي الحرب على أهل الدرعية حتى صار القتل من الجانبين، فقتل يوماً ولدين كبيرين لمحمد ابن سعود، [غير] أكبر ولده عبد العزيز، فأخذت محمد ابن سعود وابنه عبد العزيز وكذا محمد بن عبد الوهاب زيادة الحمّية والغيرة على الدين وحفظ العرض وصون النفوس فهيأوا لهم عسكراً كثيراً، شيئاً من أهل بلدهم وشيئاً من العربان البداة وغيرهم من الذين عاهدوهم وصدقوا بمذهبهم، وكذا بإعطاء شيء من المال خفاءً، فقامت الحرب بينهما سنة الستين بعد المائة وألف؛ ثم إن الحرب استمرت بينهما ثمان وعشرين سنة ولم يقع في هذه المدة صلح إلا ثلاث مرات متفرقات. ثم إن أول حرب أوقعه محمد بن سعود بأمر محمد بن عبد الوهاب هو حربٍ بن دواس وكان عدد غزوه إذ ذاك عشرين ذلولاً وسبعة أفراس، ثم إنه مشى عليه مرة أُخرى بمائتين ثم ثالثاً بخمسمائة ثم المرة الرابعة بقدر سبعمائة ذلولٍ ومائتي فارس ثم أنهى ما مشى به إلى الرياض ثلاثة آلاف بين راكب وماش. فأخذ أمر ابن سعود محمد يزيد شيئاً شيئاً وشأن دهام بن دواس ينقص وينزل، حتى دانت بالطاعة بلاد الرياض وقراها. ثم استتبع يَغْزُو كورة الوشم وصوبة سدير، فحاربه أهلهما حرباً جيداً وقتلوا منه خلقاً كثيراً. وكان إذاً في تلك الغزوات لم يظفر محمد بن سعود نفسه بل الرئيس وأمير الجيوش هو ابنه عبد العزيز، وذلك ليس لضعف من القوة لمحمد بن سعود، بل كان غير مدبر للحروب،

وابنه عبد العزيز ذو هيبة ووقار وتدبير، وكان قريباً طبعه من طبع محمد بن عبد الوهاب، لذلك كان محمد بن عبد الوهاب يحبه محبة مفرطة، ويقول: هذا الإمام، هذا ناصر الدين، ويثني عليه.

فأوّلُ غزوة ركب فيها عبد العزيز بن محمد بن سعود على أهل الوشم اتفق معهم في البرية، فحاربوه وقتلوا منه خلقاً كثيراً، وانكسر فرجع إلى الدرعية، ثم ازداد قوماً، فغزاهم بغتةً وهجم على بعض حصون فدخلها قهراً وجعل كل من فيها علفاً للسيف حتى الأطفال والشيوخ. فقيل له: هذا فعل لا يرضى الله به، أتقتل من لا يقاتل؟ فسكت ولم يجب حينئذ، لأنه خاف الانتقام ذلك الوقت وأن يؤدّي إلى الفتن. فلما فتح بلاد الوشم كلها ورتب فيها من رتب، وبايعه بقية أهلها، وجعل فيها أميراً على الكل من قبله، كتب لمحمد بن عبد الوهاب يخبره بجميع التدابير، ويعلمه أن بعض عسكره أنكر عليه في قتل بعض الناس، فكتب له محمد بن عبد الوهاب كتابين أحدهما سراً يُنَبِهه فيه أنك لا تعجل على من خالفك، وأنك خذ معك من أهل الوشم فلاناً وفلاناً مع بيوتهم، وائتِ بهم إلى الدرعية لزماً. وكتب كتاباً ظاهراً أمره ان، اقرئه جميع عسكرك، وقد ذكر فيه ترغيباً لهم في رواج هذا الدين ومدحهم مدحاً، وأوعدهم النّصر وجزيل الثواب. ثم إنه في خلال هذه المدة طاعةُ بلادين كثيرة من نجد غير ما ذكرنا، ومن بداتها أيضاً قبائل عديدة، مثل سبيع ومطير وبعض عنزة وكثير من شمّر. وأما أهل العُيَيْنَة الذين منعوا محمد بن عبد الوهاب عن النصرة، والإقامة عندهم، حين تغلبوا على كبيرهم عثمان بن معمر، فإنهم قتلوا كبيرهم عثمان لما أحسّوا منه المتابعة الباطنية لمحمد بن عبد الوهاب، فسمع بذلك محمد بن عبد الوهاب فتركهم لم يأمُر بغزوهم، بل قال لعبد العزيز: دع أهل العيينة الآن، فإن لنا معهم إرادات كلية، حيث إنهم أفسدوا علينا الأمر في أول وهلة، وقد قتلوا عثمان بن معمر، وهو يرجع إليّ في النسب، فانتقم منهم قريباً بحول الله تعالى. فسمع أهل العيينة بهذا الخبر، وأخذهم الرعب، حتى إن الرجل أخذ يفرق ماله إلى سائر البلدان، وقد أصابهم وهن عظيم، بحيث فتر جدّهم عن المعاملات والزروع إلا قليلاً. فلما طال المدى، تفرق بعضهم في بعض قرى نجد، التي لم يدخلها حكم محمد بن عبد الوهاب بعد، وهو، أعني محمد بن عبد الوهاب، يأمر عبد العزيز أن لا تلتفت إليهم أصلاً، حتى مضت على ذلك تسع سنوات، أمره حينئذٍ بغزوهم. فركب عبد العزيز على العُيَيْنَة بأربعة آلاف محارب

فدخلها بالسيف، وقتل منهم خلقاً كثيراً. وكتب لمحمد بن عبد الوهاب كتاباً يخبره بأمره فيهم، فأمره أن أخرجهم من بلادهم كلاً وجمعاً، ثم هدِّم السور والبيوت وخرِّب البساتين واقطعْ النخيل، وينبغي أن تجعل أرضهم هذه كأرض ثمود. ففعل حسب ما أمر به بل زاد على ذلك. وإنما كان أمر محمد بن عبد الوهاب وعبد العزيز في أهل العيينة هكذا، لأن أهل العيينة هم أشراف نجد على الإطلاق، وإن كان هناك رياسة تدعى في جميع بلاد نجد كلها فهم الحريّون بها، لأنهم نسباً يرجعون إلى بني حنيفة القدماء، الذين كانوا ملوك كوراتِ نجدٍ عموماً، ولأنهم من المحال أن يتابعوا محمد بن عبد الوهاب على أمره صادقين، وذلك قد عرفه من شأن بقرائه سابقة وشواهد ساطعة، فاقتضى الحال أن لا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً. وحين علم الناس شدة وطأة عبد العزيز بن محمد بن سعود، وأنه مستقر على هذا الأمر مع محمد بن عبد الوهاب، وأنهما ذوا بأس وقوة، دخلوا بطاعتهما، راضين بالدين: بعض محبةً له، حيث قاسوا في أنفسهم قياساً أدى إلى القبول، قائلين: لو لم يكن هذا حقاً لما استمر وانتصر لكنه انتصر فيكون حقاً؛ وبعض لم يعتبروا رواجه إلا من قبيل الاستدراج، لكنهم قبلوه خوفاً، فعلى هذا، أخذ يتفحص بالفراسة، فمن تبين له أن قبوله هذا ظاهراً وباطناً، قرّبه لديه، وأعزّه، وأعطاه شيئاً يكفيه، وصار عنده مسموع الكلمة؛ ومن ظنّ دخوله على وجه الخوف والتقية، أعطاه أماناً ولكن يتحذر منه، ويرقب أحواله آناً فآناً، ثم كان يؤلف بعض الناس.

ولما تمّ أمر نجد كلها، كبر ذلك على بعض مخالفيه من أهل نجد خفية، كذلك شقّ على شيخ بني خالد، وكان إذ ذاك عرعر بن دُجين الخالدي، فاستصلح عرعر أن يمشي بطائفة بني خالد، وبعض حضر الأحساء. وكتب إلى بعض الموافقين له باطناً من أهل نجد. فسار عرعر بقوة عسكر ومدافع فنزل بلدة يقال لها الجبيلة بطريق العيينة مما يلي الدرعية، مسافة خمس ساعات. وكان في الجبيلة خمسمائة مقاتل، رتبهم عبد العزيز من قبل فيها، لما سمع بخروج عرعر. فهمّ عرعر بدخول تلك البلدة، فمنع وقوتل قتالاً شديداً، وقد قتل من عسكره قدر ستمائة رجل حيث إنَّ حربه معهم بالهجوم على السور وهي بلدة صغيرة، ولها سور محكم يسع دائرها ستة أكوات؛ ثم انه لم يدرك هناك ما أراد، وانصرف راجعاً إلى أرضه، ولم يسر إلى الدرعية. فكأنه هجس بعض ركاكة من عسكره، لما قتل منهم هذا الجمع الذي ذكرناه، بسبب حرب بلدة صغيرة.

ولما سمع عبد العزيز برجوع عرعر سار بنفسه إلى أهل الجبيلة، وأنعم عليهم بالعطايا والتحف، وقال: الآن تبين عندي أنكم الصادقون بالقول، لكن المنة لله، لا تحسبوا لأنفسكم منةً في ذلك، فإنه من ضعف الدين. قالوا: نعم أيها الأمير، بعنا أنفسنا لله.

ثم إن عرعر بقي مصاحباً لعبد العزيز وأبيه ومحمد بن عبد الوهاب، لكن هم الذين طلبوا منه الصلح، وقد أرسلوا له بعض الهدايا من الخيل النُّجاب فبقيت مدة المصالحة معهم سبع سنين. ثم إنه اتفق له حرب بعدها فسار إلى الدرعية بجيوش كثيرة، وقد حصرها قريباً من شهر، وكان عسكره إذ ذاك اثني عشر ألفاً، فلم يصب منها شيئاً، ولم يحاربها إلا بالمدفع فقط.

وكان السبب في حرب عرعر المرة الثانية بعد المعاهدة أنه وقع بين عبد العزيز وبين بادية من أهل اليمن تسمى العجمان وكانت تسكن نجداً، وهي واقعة مشهورة. وحاصلها أن عبد العزيز خرج غازياً إلى ناحية الحجاز بأربعة آلاف محارب. فتوافق مع غزو العجمان وكانوا ألف مقاتل، فحاربهم عبد العزيز وقتلهم أشرَّ قتلة وأسر منهم ثلاثمائة رجل، ثم رجع إلى الدرعية، وهمّ بأن يتبع سلفهم، ويقطع دابرهم، لأنهم قوم فسادٍ وشقاق؛ إلا أن محمد بن عبد الوهاب منعهم عنهم، وقال له: أولئك من يام، وهي طائفة كبيرة، تسكن اليمن من بلاد نجران، بداةً وحضراً، ونحن لا نحب حربهم اليوم. وأما العجمان فلما رأوا ضعفهم في نجد، وأنهم قليلون، سار بعض من رؤسائهم إلى نجران يستنصر بقومهم على عبد العزيز ويخلص أسراهم من يده، فأنصروهم وجاؤوا معهم من يام نجران عدد ألف ومائتي رجل، منهم أربعمائة فارس وثمانمائة تفاق، وأمير هذا الجيش حسن بن هبة الله المكرميّ، قيل إنه شريف من السادة، زيديّ المذهب، وقيل ليس بعربيّ وإنما هو هنديّ، تولد بأرض نجران من أربعة أو خمسة أصلاب، وصار شهرتهم بالمكارمة، وأنه رجل ساحر يتعاطى علوم السيميا والحروف وهو بحسب الظاهر رافضيّ، وبالباطن عند من كشف عن حاله طبيعي منكر الصانع. فلما وصل حسن المكرمي بعسكره هذا إلى أرض العارض سمع محمد بن عبد الوهاب بوصوله، فقال لعبد العزيز: سر له بخلق عديد، ونازله، ولا تحاربه حتى يقع بيننا صلح، فإني لا أرى خيراً في القتال مع هؤلاء القوم. ما تقول في أناس مسكنهم اليمن، ويدخلون لب نجد في هذا العدد القليل مع أنهم عرفوا شوكتنا ولم يبالوا بها؟ فإياك والحرب معهم، وإنما أمرتك بالخروج إليه، أتعرف الغاية؟ قال: لا. قال: ليكون إظهار حياة لديه، ولأجل أن لا تختلف جماعاتنا علينا، بأن يقولوا قد ضعف أمر

هذا الدين ولقد هابوا الحرب مع رجل يامي. فخرج عبد العزيز إلى المكرمي بأربعة آلاف رجل، والتقى معه عند الرياض، فجعل ينازله أين ما نزل، كأنه يمانعه، والمكرمي، لما رأى أن أهل الدرعية لا يجسرون الهجوم عليه، قال لجماعته: هؤلاء القوم نعاج فبقاؤنا معهم بلا تقدم حرب لا رباح فيه، كُرّوا عليهم بالسيف الساعة الساعة. فعمدوا على عبد العزيز وقومه، فالتزم عبد العزيز بالمدافعة حينئذٍ فوقع بينهم السيف والبندق من أول النهار إلى قبل الظهر، فأدبر منكسراً ورجع إلى الدرعية، وقد أُسر من قومه ستمائة رجل، وضربت رقاب أربعمائة. وهمّ النجراني بالهجوم على سور الدرعية، فأرسل محمد بن سعود، بأمر محمد بن عبد الوهاب بعض أولاده، غير عبد العزيز، وبعض نساء من أهل بيتهم، ومائة وعشرين فرساً للنجراني، وكتب كتاباً يلتمس فيه الصلح. فلما رأى النجراني بذلهم الهدايا وإظهار عجزهم بإرسال الرسل من رجال ونساء من آلهم قال: الآن طابت نفسي وحصل الثأر. كتب حينئذٍ كتاباً بأن أطلقوا الأسرى الذين لنا عندكم، ونطلق أسراكم كذلك. فأرخصوا أسرى العجمان والنجراني رخص أسرى أهل الدرعية لأنه كان يوفي بالقول. فعاد النجراني إلى بلده نجران بعدما مضى من الصلح ستة أيام. وهذه الحرب، هو الذي دعا لمجيء عرعر ثانياً على الدرعية. فإن عرعر، حين سمع بحرب النجراني، قال: هذه فرصة، فإني أغتنمها. فركب بعسكره وبلغ حوالي الدرعية. وأنفق ذلك اليوم الذي وقع فيه الصلح مع النجراني، وكان عسكر النجراني على فرسخين من الدرعية، فنزل عرعر قريباً منه بنصف فرسخ. فأرسل عرعر إلى النجراني بأن لله الحمد على هذا الاتفاق، الذي حصل بيننا وبينكم على حرب هذا المبتدع، فهذا إن شاء الله نريد مواجهتك، ونتمم الأمر بيننا وبينك على كيفية حربه، ولا نطيل الأمر. فكتب حسن بن هبة الله إلى عرعر يقول له: لو كان هذا الاتفاق قبل أن يجري الصلح بيننا وبينه لانتظم الأمر على وفق خاطرك، لكن الآن نحن حصل مرادنا من الانتقام وقد طلب منا العفو، ونحن أهلٌ له عند القدرة، وأعطيناه، فلا يمكننا إبدال القول. أما أنت فمختار بحربك معه، نحن لا نتعرض بشيء. فلما وصل كتاب النجراني إلى عرعر، وعرف مضمونه، اغتمّ لأنه كان يحسب انه معه، ولأن النجراني، وإن كان عسكره قليلاً قدر ألف ومائتي رجل، لكنه بين الحماية والقوة، وشجاعة يام معروفة، قيل من عاداتهم في الحرب أنهم إذا حملوا لا ينكصون، ولو قتلوا عن آخرهم، ومن عاداتهم في الحرب، ولو قتل كبيرهم، فلا يختلون ويقيمون أدنى شخص مقامه. ثم إن عرعر كتب كتاباً آخر إلى النجراني يرغبه في الموافقة

معه على حرب محمد بن سعود، وذكر له أيضاً: إنك إن وافقتني على قلعه من هذه الأرض فلك كل عام مائة ألف ذهب تصلك إلى نجران. فرد جوابه النجراني قائلاً: لا يكون ذلك. كيف والشيمة هي حسن الوفاء بالقول. نعم أنت إن أدركت منه الآن مرادك فيها، وإلا فإن أحدث بعدُ علينا شيئاً، فأنا بمجرد سماعه آتيه، ولا يردّني عنه شيء إما قتله أو الموت. ولما آيس عرعر من اتفاق النجراني معه حاصر الدرعية شهراً ولم يدرك شيئاً مما أراد. فرجع إلى الإحساء كما أسلفناه.

وأما محمد بن سعود لما رأى رجوع النجراني إلى نجران وعرعر إلى بلاده هيّأ عسكراً مقدار ستة آلاف مع عبد العزيز، بأمر محمد بن عبد الوهاب، وأرسله إلى طائفة من شمّر قد طاعت قبل ذلك، ولما سمعوا بمجيء النجراني وعرعر، ارتدوا عن حكمه وجعلوا يغزون أطرافه، فسار عبد العزيز بالجيش إلى جبل شمر وغزاهم ليلاً، فأهلك منهم جمعاً كثيراً وقد أسر منهم مائتي رجل بل أزيد. ثم رجع إلى الدرعية بأمر محمد ابن عبد الوهاب.

في بيان نسب محمد بن سعود وحسبه وما كان عليه قبل اتباع محمد بن عبد الوهاب

ذكر الثقات من المخبرين عن شأن محمد بن سعود أنه كان رجلاً كثير الخيرات والعبادة، وكان أبوه سعود وجده محمد واليين في الدرعية كبيري قومهما، وهو، أعني محمد، كان كريم الطبيعة مُيَسَّر الرزق له أملاك كثيرة من نخل وزروع، وله عددٌ من المواشي. قيل: من سخاوته ان كان الرجل يأتيه من البلدان، يطلب منه شيئاً كثيراً لوفاء دين عليه فإذا عرف أنه محق، أعطاه إياه، حتى أن بعض السنين وفد عليه رجل من أهل البريدة اسمه ناصر ابن ابراهيم، وكان تاجراً لكنه أفلس ببعض أموال الناس صرفها في مهمات نفسه، وكان الذي عليه أربعة آلاف ذهب. فلما وصل الدرعية أبدى الأمر لمحمد بن سعود قائلاً: يا شيخ، ـ وكان إذاً يلقب بالشيخ حتى حان متابعته لمحمد بن عبد الوهاب منع الناس عن أن يقولوا له ولغيره من حكام، هذا الشيخ أو نحوه، إلا لأهل العلم فلا بأس ـ فأعطاه أربعة آلاف ذهب، ولم يبالي. فقال له أولاده، غير عبد العزيز، ما هذه السفاهة؟ أتعطي رجلاً لا تعرفه إلا بالاسم هذا المبلغ الخطير؟ فقال: نعم يا أولادي، الدنيا إنما جعلت لكرامة بني آدم، فالخيِّر منهم ذو الشرف إذا ذلَّ ينبغي

إعانته بما يمكن لئلا يزدريه السفل، وهذا ناصر بن ابراهيم قد سمعتم به أنه رجل كان ذا مال وشرف، وقد اضطره الزمان فعلى الناس الكرام إبداء الخير لمثله.

هذا والمعهود من محمد بن سعود أن ليس أحد يراه شاباً من أهل بلده وجماعته غير متزوج إلا سأل عن حاله فإذا قيل له لا يمكن شيئاً من جهاز، جهَّزه وأمره بالزواج. وإذا امتنع أن يعطي أحدٌ بنته لشخص خطبها وهو كفؤ، سار محمد بن سعود بنفسه إليه، وعاتبه في ردِّ ذلك، وربما يشترط على نفسه أن: أعطوا هذا فلانة فإن أصابها ضرراً من كسوة أو متاع أو مسكن فأنا ضامن به. وكان كذلك يفعل حيث وقع الشرط لا محالة، وذلك لحسن سيرته وسريرته، يريد التئام جماعته وكثرة خيرهم بالتناسل والتساعف. وكان يحب الخلوة. قيل: إنه كان يأتي البيت فيجلس وحده ولا يريد أحداً من أولاده أو نسائه أن يدخل عليه، ويبقى على هذه الحالة مستمراً سبعة أيام أو أكثر وكان لا يرضى بالحرب مع أحد ولو عيل عليه. ودائماً يأمر جماعته بإطفاء الفتن لكن قومه أهل حقد وخدع كثير ولم تصف قلوبهم على من جاورهم من البلاد. ولهذا لولاه لما دخل أحد بمال لبيع وشراء إليهم لأن نفوسهم غليظة. هذا ما صحّ لدينا من خصاله وأفعاله.

وأما نسبه فقيل يرجع إلى وائل، ووائل إلى ربيعة وربيعة من مضر وقد ذكر الناسبون هكذا: محمد بن سعود بن محمد بن عمر بن فيصل بن أحمد بن سعدان بن عبد الله ابن عثمان بن ياسر بن جبر بن عبد العزيز بن عمر بن سليمان بن زيد بن عبد الرحمن ابن شُليم بن عدوان بن صالح بن فضل بن حميد بن ضاحي بن نجم بن معمر بن علي ابن سَيَّار بن زامل بن حيان بن سمرة بن عويمر بن داحس بن هلال بن زاهر بن سمعان بن مستجلَ بن زيد بن دارم ابن ضُبَيَّة بن بكر بن مُدلج بن وهب بن زمعة بن بكر بن وائل بن داحس بن عمرو بن قضاعة بن مصعب بن مطعم بن جبير بن ربيعة ابن مضر. هذا ما نقل لنا والله أعلم بالصواب، وقد خُتم الباب.

في كيفية سلطنة محمد بن سعود وابنه عبد العزيز وابنيه سعود وعبد الله بن [سعود] في بلدان نجد وأطرافها

ونعنى بكيفية حكومتهم ووضع سيرتهم ومنهاج سياستهم التي استفادوها من وضع محمد بن عبد الوهاب. ونذكر في هذا الباب بعض الحروب التي وقعت لهم في بعض السنين. ويتلوه ذكر أسماء قبائل نجد، فنقول:

اعلم أن محمد بن سعود لما استقر الأمر له بتوسط الدين الذي أخرجه محمد بن عبد الوهاب - وقد عرفت أنه وأولاده من بعده لم يخرجوا عن مصلحة محمد بن عبد الوهاب وأولاده مثل ما وقع الشرط أولاً - كان شأن آل سعود إذاً حيث تولوا بلداً كبيرة أو كورة، بنوا حصناً في تلك البلدة على حدة عن حصنها الأول إن كان لها حصن، وبحثوا حوله خندقاً إن كانت أرضه صلبة، وأحكموا بنيان القلعة ورتبوا في الحصن قدر خمسمائة رجل عسكري أو ألف رجل على قدر البلاد وخراجها، وسموهم الأمناء إما من أهلها، إن استصلحوهم، أو من غيرها من بلاد، لكن بشرط كشف حالهم عن الاستقامة التامة بحسب الاعتقاد بهذا الدين. ويعينوا هؤلاء متاعاً كثيراً ربما كفاية ستين أو ثلاثة سنين مما يُدَّخر، ويجعل في الحصن أيضاً بنادق عديدة وبارود كذلك، وربما جعلوا في بعض الحصون مدافع، ويعيّن لأولئك الجند مدخول كثير مثلاً يبلغ أُجرة كل واحد في السنة ثلاثمائة ذهب، أو أربعمائة ذهب، وذلك لأنهم اتخذوهم حُفَّاظاً للبلد عن كل أحد. وهذا الجند المرتب لا حاكم عليهم غير عشرة رجال منهم أُمراء يحكمون بموجب ما لهم من جائزة الحكم الذي عُيّن لهم فيه. فإن اتفقوا فعلوا وأطاعهم الجند وإلا فلا؛ وطاعتهم لهم بالنسبة لما قرره إمام المسلمين وبيّنه. وإن اتفقوا على غير ذلك فلم يطيعوهم قط، وهم لا يخرجون عن الحصون أصلاً، وكانت عادتهم أن يجعلوا في بلدة كبيرة قاضياً ومفتياً، وفي الصغيرة قاض فحسب، ويعينوا لهم خرجاً من بيت المال، وأيضاً يرتبوا في كلّ بلد عمالاً لأخذ الزكاة. مثلاً بعض البلاد يجعل فيها أربعة عمال، وبعض سبعة، حسب الكبر والصغر وكثرة المدخول وقلّته. وهؤلاء غير الحكام، فإنّ الحاكم لم يجعلوا له توليةً في أخذ المال قط، وكانوا يجعلون في كل بلد محتسباً يتفقد أحوال الناس بالتجسس عما هم عليه من صدق النية بالطاعة لهذا الدين، وما هم فيه من المعاملات الدنيوية، كالبيع والبشراء كأن ينقصوا المكيال والميزان، أو يفسد بعضهم بلصاصةٍ، أو تعدٍّ على أحدٍ أو تعدل القضاة عن إقامة حدود الله بأخذ رشوة أو الحكام كذلك، ويجعلون في كل بلدة حاكماً من قبلهم. وينزعون من كان حاكماً قبل إيالتهم. ويجعلون في كل كورةٍ أميراً، وهو أعظم شأناً من سائر حكام البلاد لأنه قاهرٌ على كلّ من في الكورة. وكانوا يقولون للأمير والحاكم والقاضي والمفتي والعمال: عليكم بالتوافق في التدابير وجواري الأمور.

وأما شأنهم مع أهل البادية، فكانوا يقرون أُمراءها القدماء فيها، ولا يعزلونهم وينصبون أناساً من غيرهم. نعم إذا تمرّد أحد منهم مثلاً عزلوه، وجعلوا أخاه أو ابن عمه مقامه، وذلك لأنهم عرفوا أن البدو لا ينقادون أتمّ الانقياد إلا إلى الكبير منهم. وكانوا يجعلون في كل قبيلة قاضياً أو مفتياً وإمام صلاة يقيمون لهم الصلاة جماعة ويبيّنون لهم حدود الله وأحكامه. إن البدو كانوا قبل خروج هذا المذهب يتحاشون عن متابعة الشرع الشريف. وكانوا إذا علموا من أكابر البداة من يبذل النفس في النصح والإخلاص لهم وللدين، جعلوا أكثر خراج طائفته له، بل ربما قالوا له: يكفينا منك مجرد الطاعة، وزكاة قومك لك؛ وكانوا إذا رأوا الخلاف، من أحد، من أهل المناصب والأعيان، خلافاً كلياً، من البداة وغيرهم، يؤدبونه بعزلٍ أو بحبسٍ ولا يضربونه، فإن ألجأهم الأمر إلى أن يقتلوه، قتلوه جهاراً إن تمكنوا منه، ولا يقتلونه غيلةً وغدراً بنحو سمّ. وإذا وقع بين رعاياهم حرب أو قتل أو مطالبة مال يحملونهم على منهاج الشريعة. وكان من جملة أوضاع حكومتهم إذا أرادوا ردّ المتعدّي، فإنهم إما يأخذون منه مالاً كثيراً، إن كان له، أو يجلونه عن وطنه إلى غير ملكهم، أو إلى بلدة نائية عن بلده، وهي تحت يدهم. وإذا مات أحد من أبنائهم، أو الزهاد أهل الورع، أو مات أحد من رجال الحرب، أو قتل أحد منهم وكان له عيال ضعفاء من رجال ونساء، قرروا لهم قدر الكفاية، ويتفقدون أحوالهم. وهذه كلها أوضاع وضعها محمد بن عبد الوهاب. وقد يقع بعض السنين عليهم دين كثير، لا يفي بيت المال بوفائه، فيشهرون أنهم مقروضون بذاك ولا يفي بيت المال به، فيشيع هذا بين الناس فيجيبون إليهم كلٌّ بقدره من المال حتى يوفوا ذلك كله. وهذا يحصل عن طيب نفس لا عن قهر وقوة، وذلك في ابتداء أمرهم بالحكومة، لما كانت نجد خاصة بيدهم.

وكان من بعض سياستهم أنهم يضبطون كلَّ المداخل في بيت على حدة، ويسمونه بيت المال، ولا يُسلّطون عليه متى شاؤوا، بل لهم قواعد تؤخذ منه بقدر الخرج المعتاد، فيزيدون الخرج شيئاً فشيئاً على قدر اتساع الملك، وهذا بأمر محمد بن عبد الوهاب. فقرروا لبيت محمد بن عبد الوهاب وأولاده وأحفاده وخدامه وحشمه، قريباً من خمسين ألف ذهب، ثم قننوا لهم ولآلهم ما يبلغ في السنة مع خدمهم وتوابعهم مائتي ألف ذهب. ولكن لما زاد الملك بعد فتوحات أرض بني خالد والحجاز، وشيء من اليمن وعمان، وغاية ذلك كان في أيام آخر سلطنة عبد العزيز مع أوائل تسلط ابنه

سعود، قرروا لأولاد محمد ابن عبد الوهاب ما يبلغ في العام ثمانين ألف ذهب. ثم استمر الحال كذلك إلى أيام عبد الله بن سعود ولهم مال معروف، دون بيت المال، مثل هدايا يتحفون بها من إمام صنعا اليمن أو من أهل مصر أو غيرهم، كهدايا كانوا يتحفون بها حجاج العجم لأنهم يمرون بهم ولهم أيضاً أملاك نخيل وزرع اشتروها وتورثوها.

وكان من عاداتهم أيام دولتهم، أن جميع حاج العقيلي والعجم المارين بهم يضيفونه ثلاثة أيام بلياليها، ولا بد أن يحكموا على الحجاج بالغداء والعشاء، ويرون ذلك واجباً، وهذه العادة، مما أفتى بها محمد بن عبد الوهاب، مأخوذة من سقاية الحاج وإطعامه الذي كان يعمل في أيام الجاهلية، ثم قرره الإسلام وندب إليه. وكانوا يأمرون كل أمير من أمراء الحاج أن لا يسير بركبه من أية ناحية أتى، إلا ويمر بالدرعية ذهاباً وإياباً، فوقع بعض السنوات أن حجاجاً خرجوا من الكويت، مُريدين مكة عظمها الله، ولم يمروا بالدرعية، وساروا على طريق الزلفي. فلما سمع بهم عبد العزيز، أمر جتّيان بن رشيد الدوسري، فغزاهم وأسرهم، فأتى بهم إلى الدرعية، وكلّ ما التمسوه منه الحاج بأن: نبذل كذا وكذا - وكان فيهم خلق كثير من العجم - وأرخصنا لنمضي إلى حج بيت الله الحرام فأبى وقال: قد نبّهنا قبل هذا أن لا يقصد أحد من هذه النواحي مكة، إلا أن يمرّ بنا ويضيفنا ونعرفه، ويعاهدنا على هذا الدين. وأنتم أخلفتم الحكم، فلستم في الذمة. وإنما أمرهم هذا كما ذكرنا غايته اشتهار قدرتهم بالطاعة، وإسماع جميع الناس من أهل الأقطار ما هم فيه من الدين، وترغيب العوام به بما يبلغهم أنهم يضيفون حجاج بيت الله، وهذا ناموس عظيم.

ثم إنهم منعوا الأعراب عن أخذ الأخوّة على الحاج وكان البداة الأقوياء يأخذون على الحاج مالاً يبلغ عند بعضهم الرأس أربعة ذهوبة، وعند بعضهم ستة ذهوبة؛ وكانت هذه الحالة من أرض بني خالد إلى بابي مكة والمدينة ولا فرق بين العرب والعجم في الأخذ، إلا أن العجم أكثر أخذاً منهم. فلما استقر الحكم لآل سعود، منعوا جميع العرب التي تحت سلطنتهم من أعراب نجد وغيرهم كعرب الحجاز وعُتيبة وهُذيل ومن حالفهم. وكذا منعوا جُهَينة عن التعرض للحاج، وكانوا يأخذون مالاً كثيراً ربما يبلغ كلّ رأس خمسة عشر ذهباً. وقالوا لكبار هؤلاء الطوائف، تأليفاً لقلوبهم: هذا نحن نجري لكم من بيت المال بعض الذخائر فلا تقربوا الحجاج بشيء. وأخذوا عليهم عهداً. فعلى هذا

كان الحاج المعاهد لهم يمر بجميع جزيرة العرب، ولم يتعرضه أحد. وكان لهم حكم قاهر لم يجرؤ أحد من البدو والحضر أن يسرق شيئاً، ولو عقال بعير، وقد أجروا السياسة على جميع من في مملكتهم بحيث تحمل الأنثى حُليَّها وتمضي وحدها مسافة مرحلة مثلاً، أو أكثر، أينما شاءت ليلاً ونهاراً ولم يتعرضها أحد قط.

يحكى أن امرأة من أهل بريدة، كانت جميلة جداً، وذات مال وجاه، خرجت يوماً إلى البرية أيام الربيع تتفرج على الأزهار والأنوار، ومعها بعض خدمها، فلما أرادوا الرجوع إلى البلد جنَّ عليهنَّ الليل فضلوا الطريق، فلما قرب الصباح انفردت هي عن جواريها لوقوعهن بين تلول، فصادفها رجل، وكان فيما ينقل أنه فاسق سارق، أخبث من الشيطان، فقال لها: من أنتِ؟ قالت: فلانة، وكانت مشهورة بالصدق أيضاً فلما سمع بها، وهو يعرفها بالاسم والصيت، قال لها: أهلاً وسهلاً، وكان طامعاً بها فلم تجبه إلى أكثر من: انظر من خلفك. فخاف، فالتفت ملياً فلم ير أحداً فقال لها: من ذا الذي ترهبيني به؟ قالت: عبد العزيز آل سعود، فإن كنت عاقلاً فلا تطمع. فأخذ يتملق ويلتمس منها المقاربة حتى غلب على أمرها بأخذ المال الذي معها من الحلي وتخلية سبيلها، فاستغنمت ذلك، وهي عارفة أن المال لا يفوت. فلما أضاءت الشمس، عرفت السبيل المفضي بها إلى البلد، فسلكته حتى وصلت إلى بيتها، وكانت ذات زوج. فسُئلت عن حالها بالأمس، وسبب التخلف، فقصّت عليه القصة. وهو رفعها إلى عبد العزيز فجعل عبد العزيز يسأل ويتفحص عن حال رجل كذا وكذا، في يوم كذا وكذا وعن الموضع الذي وقع اتفاقه معها؛ فاستمر ذلك إلى بعد أربع عشرة سنة، فحصل مَن أطلعه على حال ذلك الشخص، وكان رجلاً من قبيلة معروفة في نجد، فأرسل خلفه، وهو يظن أن هذه مدة ماضية، قد غاب الحال عن عبد العزيز. فلما حضر لديه، قال له: يا فلان، أتدري ما لنا عليك من الدين؟ فقال: أيها الإمام ما أنا بمقروض لك بشيء. فقال: أين الحليّ الفلاني، الذي سلبته المرأة فلانة؟ إيتِ به، لا بد من ذلك. فألجه بالتهديد، إلى أن أخذ منه جميع ذلك الموجود منه وقيمة المفقود، فأرسل خلف المرأة وزوجها إلى الدرعية، ومراده بيان الشوكة، فقال: هذا خصمكما، فقد استوفينا منه المال بكليته. فأعطاهم المال، ومَثَّل بذلك الشخص. ومن هذا القبيل لهم حادثات كثيرة.

ومن جملة وضعهم في الحكومة أنهم تركوا التجبر والحجب وأخذ شيء من أموال

الناس بلا وجه بيّن، حيث إنهم يدعون اننا على مسند رسول الله ﷺ وكان الغني والفقير عندهم بحال ولهذا لا يجسُر أحد ذو مال أن يتعرض في أيامهم بشيء ولو قليلاً على أحد؛ حتى الشتم والسب، رفعوه، فلو قال أحدٌ لأحدٍ يا فاسق، أو يا كلب، أو نحو ذلك، التزم بهذه الدعوى، ورُفِع أمره إلى حاكم الشرع فيُعزّر، ولو كان الإمام نفسه. حُكي من الغرائب، أن يوماً من الأيام، سبّ عبد العزيز رجلاً في المجلس. فلما انقضى المجلس، سار الرجل إلى محمد بن عبد الوهاب شاكياً حاله قائلاً: أريد فصل الحكم على أمير المسلمين. فقال له: ما بالك معه؟ قال الرجل: قد سبّني اليوم. فأمر محمد بن عبد الوهاب أحد خدامه بإحضار عبد العزيز. فلما جاءه الخادم، قال: عليك شكوى. قال: لمن؟ قال: لرجل سببته اليوم بلا سبب. فلم يلبث عبد العزيز مكانه، وقام فزعاً من محمد بن عبد الوهاب. فلما حضر لديه قال له: اجلس إلى جانب صاحبك، وتخاصم معه، فإن الدين لا يسع غير هذا. فاعترف عبد العزيز بذنبه على ذلك الرجل، وقال: هذا اشترى عرضي منه بما شتمت عرضه بخمسين ذهباً. قال: ذلك حق له إن رضي. فاسترضى الرجل بالمال، فلم يرضَ، وكان غيوراً. فأمر محمد بن عبد الوهاب بعصا كانت يتخذها لتأديب بعض الناس. فقام وضرب عبد العزيز عشرين ضربة، وهو يقول: سمعاً وطاعة لله ولحكم الشرع، ولم ينكر على محمد بن عبد الوهاب في ذلك هو ولا غيره من آله والرعية، بل أخذ الكل يحمده على فعله، وكم مرة خاصمه الأدنى والأعلى على بعض الأملاك، كما يقع بين سائر الناس وينقادُ إلى الحكم الشرعي، ولا يرضى بغيره. وكان أبوه محمد كذلك وولداه سعود وعبد الله ابن سعود.

ولم يزل أمرهم بالتواضع والجلوس على الأرض، بلا فراش إذا مروا في سائر الأوقات، ولا يكلّفون أحداً بالقيام لهم، ولو علموا من أحد القيام خوفاً ومراءاة، قالوا له: نحن كأنتَ إلا في الحكم، فإيّاك أن تهاب منا وتقهر نفسك للقيام، فإن شئت أن تكرمنا، فلا بأس، وإلا فأمْسِك. وكان الأمر بينهم كذلك في جميع ما ذكرناه، حتى توفي عبد العزيز قتيلاً، واتخذوا حينئذ الحجّاب والبوّاب، وحصّنوا البيوت، وبنوا الخلوات، ولم يجسر أحد أن يدخل عليهم إلا بإذن منهم، والحرس يحفهم بالليل. ولم يكن ذلك قبل. إنما فعلوا هذا لأنهم خافوا على أنفسهم من الغيلة، كما فُعِل بعبد العزيز.

ثم إنهم لما ترقى أمرهم طلبوا الفسحة في العلم فصاروا يقرأون العلوم المرغوبة لدى أهل الملك، مثل التواريخ وشيئاً من علوم الأدب كالعربية، ودواوين مشهورة مثل ديوان ابن

مقرب الأحسائي ونحوه، مما فيه بيان الغيرة، وحماية الناموس. ويعلّمون أولادهم الذكور ذلك بعد معالم الدين، وهذه إجازة أجازهم بها محمد بن عبد الوهاب ومنع ظاهراً من تعاطي غير علم الدين غيرهم.

ومن بعض سياستهم أنهم لا يرضون بصفاء خواطر القبائل التي تحت يدهم، خشية أن يتفقوا على منع حكم من أحكامهم، بل يفتنون القبائل ويلقون بينهم المشاجرة. لكن كل هذا بالخفا والسرّ.

ولما كانت أيام سعود بن عبد العزيز، اتخذوا حرساً، هؤلاء لا يبعدون عنهم أصلاً، وكانوا إذاً ألف رجل وقد عُيِّنَ لكل واحد في السنة مائة ذهب. ثم لما أظهر أمل آل سعود من أيام محمد بن سعود، كانت عادتهم في الحروب أن يعيّنوا على كل قبيلة وكل قرية أو مدينة أناساً للجهاد. ولم يجعلوا لهم وظائف أصلاً بل يقولون هذا واجب عليكم، حتى الذخيرة على من خرج بالجهاد. وكانوا يقولون لكبير الطائفة وأمير البلد: رتبوا نفراً للجهاد حيث أردنا وأمرنا. فكان حسب ما أمروا به.

واعلم أن شأنهم في الرياسة أن لا يُؤمّروا على الجيش إلا أحداً من بينهم أو رجلاً من أهل البادية. وإذا أرادوا أن يغزوا مكاناً شيّعوا أننا نريد المكان الفلاني، وهم قاصدون غيره، لئلا يبلغ خبرهم أهل تلك الديار فيحذروا منهم.

وكان من أمرهم أن لهم جواسيس في البلدان التي لم تكن تحت أمرهم يترقبون الأخبار ويرفعونها لهم. حُكي أنه كان لهم رقيب في القسطنطينية، ولما صدر الحكم من السلطان لوالي مصر وهو محمد علي باشا بأن يحارب آل سعود، بمجرد السماع كتب الرقيب لسعود يخبره بالخبر فأخذ يحصّن القلاع، ويجمع الطوائف بالتأليف لأن من عادة ما قال لهم به محمد بن عبد الوهاب، انكم إذا عرفتم أن الناس مائلة قلوبهم عنكم، فألّفوها بالبذل، فليس شيء أقوى منه للتعمير. قال بعض الرواة: كان فيما ينقل، أن في ذلك العام، الذي بلغ خبر الروم إلى سعود، أُشعر من بعض عنزة الميل عنه، فأرسل ابنه فيصل إليهم، وأرسل معه عطايا كثيرة لمشايخهم، وكتب كتاباً يمدحهم فيه ويحرضهم على القتال، ويقول لهم: أنتم أهل الدين، وكيت وذيت، حتى إنه أرضاهم بمال كثير، فرضوا منه بعد ذلك. وهؤلاء، قبل هذا بثلاث سنين، قد بدا من طائفة من جماعاتهم بعض الخلاف الجزئي، وقد ركب سعود بنفسه عليهم وقاتلهم، وكلما أرسلوا الرسل، وبعثوا بالمال وأظهروا التوبة، لم يقبل منهم لأنه حينئذ متمكن لا ضدّ له

من خارج، والآن غيّروا ما كانوا يصنعون فهم أبناء الوقت.

وكانوا يأمرون بأن لا يسافر أحد من جميع بلادهم إلى ناحية بلدان الخصوم إلا برخصة منهم، إن كانوا حاضرين هناك، أو بإذن أمرائهم الذين في تلك الأقطار. وكانوا لما دخلوا أرض الحجاز، وظهرت قوتهم فيها، ثم صالحوا الشريف، التزموا على أنفسهم أن يحج إمام المسلمين نفسه كل سنة، ويجمع جميع حجاج أهل الدين معه. هذا ما ثبت لدينا من أوضاع حكومتهم بعد اتباع مذهب محمد بن عبد الوهاب، والله أعلم بالصواب.

فصل في وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب واغتيال عبد العزيز آل سعود

أخبرنا بعض أهالي نجد أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لما بلغ عمره ثمانين سنة اعتزل عن التصرف في الأمور، واتخذ الخلوات والزهد والورع جداً، وولى ابنه الشيخ حسين على منصب المشيخة. ثم إنه لما بلغ من العمر تسعين سنة توفي وكان موته يوم السبت عام ثاني عشر، فاهتم على فقده كافة أهل دينه، لا سيما عبد العزيز وآله فإنّهم قد أصابهم حزن شديد لذلك، ثم ان عبد العزيز صلى عليه هو وآل سعود أوّلاً، وبعد أن أخرجت جنازته إلى المسجد الجامع، فجاء الناس فوجاً فوجاً للصلاة عليه. ودفن في مقبرة كانت معهودة لآل سعود من قبل.

وقد خلّف من الأولاد أربعة ذكور وست إناث. فالذكور من أولاده هذه أسماؤهم، حسين وعبد الله وسليمان وعلي وهو الصغير؛ والإناث من أولاده هذه أسماؤهن: سلمى وصفية وفاطمة وسعدى وعايذة وحبيبة، وهي الصغيرة.

ولم يخلف من المال إلاّ أرضاً قد اشتراها في حياته في بدء الأمر، ذات نخل وزرع وأشجار وفاكهة تسوى خمسين ألف ذهب. وترك مائتي كتاب، وقيل ستمائة كتاب، والأول أصح كما قال به بعض المخبرين. فأما الكتب فإنها ـ باصطلاح أولاده أجمع ـ جعلت وقفاً لكل من هو عالم يتسلم مسند القضاء والفتوى. وأما الأرض فقد بقيت غير مقسمة، كما هي قبل موته، لكن الحاصل منها كل سنة، يقسم بين الورثة. وكان بعد المرجع في مشاورة بجميع ما اشترط أولاً بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبين محمد بن سعود وابنه حسين.

ولما مضى بين وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ثمانية سنين، توفي عبد العزيز ابن محمد بن سعود. وسبب وفاته هو أنّ علي باشا، الذي ولي وزارة بغداد بعد سليمان باشا كان دائم الحقد على آل سعود، وعلى كل من هو متمسك بدين محمد بن عبد الوهاب. وكانت له همم علية وقدرة جلية في إرسال العساكر عليهم، لكن أشغله عنهم مخاصمته مع العجم حيث ألقى حرباً على الشاه زاده محمد علي ميرزا، والي كرمان شاه. والحاصل أنّ علي باشا مرّ يوماً على جسر بغداد، فقال لبعض ندمائه: لو يحصل عندي من يبذل نفسه ويسير إلى الدرعية فيقتل عبد العزيز غيلة، لأعطيته الآن ألف ذهب، وإذا بلغني فعله بموجب ما أريد منه، قررت لعياله وعيال عياله وظائف من الديوان لا تنقطع أصلاً وكتبت كتاباً تذكر فيه اللعنة على من يخالف ذلك من وزراء بغداد بعدي.

قال الراوي: فلما كان الغداء أتى رجل بيده رقعة، فوقف مقابل طارمة الباشا على عادة ما يقف أهل الشكوى. فالتفت علي باشا وقال إيتوني بما في يد هذا الرجل. فأتوه بالرقعة، وإذا مكتوب فيها: من الفقير الحقير علي إلى جناب ولي نعمته الوزير المعظم علي باشا: أما بعد، فقد سمعت أنك تريد من يكفيك شر عبد العزيز النجدي بقتله، فهذا أنا أفعل ذلك بحول الله تعالى. فأمر علي باشا بإحضار الرجل لديه، وقال له: أنت علي؟ قال نعم؟ فقال: أتوفي بما قلت؟ قال نعم. فأمر له بألف ذهب، وقال: هذه توضع بيد من تأتمنه من الناس المعروفين في بغداد، فإذا بلغنا صُنعك فهي لك، تعطى لعيالك. ولهم أيضاً وظيفة جارية، تكفيهم من جميع الوجوه، إلى مدّة بقاء دولة العثمانية.

فسار الرجل إلى بيته، وودّع عياله، وأُخذ له بعض المتاع، فأحقبه على ظهره، ثم أتى قبيل العصر إلى علي باشا، واستأذنه الدخول عليه، فأذن له، فدخل وقال: ها أنا سائر على بركات الله تعالى، وأنت اصنع ما هو اللائق الذي أوعدت به. فقال الباشا: هذه طريقك؟ قال: نعم. فنادى أحد خدمه بأن ائتوه بحصان أو بغل من الاصطبل، فالتمس: إني لا أريد شيئاً. أمشي مع القوافل برسم الحاج الفقير المضطر، حتى أصل الدرعية. فأمر علي باشا من ساعته بألف ذهب، فوضعت بيد من هو ائتمنه. وأمر أيضاً بقدر من الطعام والدراهم فسلمت لعياله وبيته ثم سار، وكان مسيره السنة التاسعة عشر من القرن الثالث عشر يوم الأحد لسبع ليال خلون من صفر.

فانحدر إلى البصرة، ثم منها إلى الكويت، ثم سار مع ركب أهل الدرعية. وأول وصوله، قدم على عبد العزيز فقال له: أنا رجل من بغداد. سمعت بدينك من ذا عشر سنوات، ولكن لم أتمكن من وصولي إليك، ولله الحمد قد بلغت مرادي. فأنا أعاهدك على هذا الدين، وليس لي بعد ذلك رجوع إلى أهلي وعيالي، بل داركم هذه دار هجرة ومقام المؤمنين، وأنتم أعز عليّ من جميع قومي وعشيرتي. وكان رجلاً فصيحاً، فقبل ذلك منه عبد العزيز وقرّبه إليه، حيث إنه رأى منه الملازمة على صلاة الجماعة والتجنب عن بعض الأمور حيث عرض عليه بعد كم يوم الزواج، فقال: لا. المراد أن عبد العزيز أحبه أتمّ محبة، وكان إذا دخل المسجد للصلاة يجعله إلى جنبه، لأنه يقول: هذا من الطائعين المخلصين، فالصلاة إلى قربة مزيد فضل.

ولما صار عام العشرين من قرن الثالث عشر يوم الجمعة وكان يوم الغرة من شهر رجب أخفى الحاج علي خنجره تحت ثيابه وصمم على قتل عبد العزيز، في وسط الصلاة، ففعل كذلك في الحال، فخرّ عبد العزيز ميتاً وقُطّع هو إرباً إرباً. وبعد شهر كامل بلغ الخبر إلى بغداد، وسمع به علي باشا، أسَر غاية السرور، فحقق ذلك الخبر وقد عرف أن قاتله هو الحاج علي البغدادي، أرسل حينئذ خلف أولاده، وكانوا ثلاثة من الذكور وأربعاً من الإناث، فأكرمهم وأمر بدفع الألف الذهب التي عينها أوّلاً لأبيهم ثم أجرى لهم كل شهر كذا من الدراهم وكانت العادة جارية إلى أيام سليمان باشا الذي صار وزيراً على بغداد بعد علي باشا، ثم ولي الأمر بعده عبد الله باشا فقطعها ولم يعمل بموجب الدفتر المقرر.

٢

ابن عبد الوهاب مجدداً للبراءة الأصلية(*)

فمما يدل على غربة الإسلام ما أخبر به النبي ﷺ من وقوع الشرك في هذه الأمة ما في الصحيح من حديث ثوبان: «وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان». وأخرج أبو داود عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أوست وثلاثين أو سبع وثلاثين فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم يقم تسعين عاماً. قال قلت أمما بقي أو مما مضى؟ قال مما مضى.

ومما يبين غربة الاسلام وشدته ما جرى من الملوك والقضاة والرؤساء على شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى من العداوة والحبس وشدة الإنكار عليه لما دعاهم إلى ما تضمنته لا إله إلا الله ومعناها، وعن أمثاله من العلماء. وقد ردوا عليه بشبهات واهية، وضلالات في الضلال متناهية، ورد عليهم رحمه الله تعالى في **منهاج السنة واقتضاء الصراط المستقيم وكتاب الاستغاثة في الرد على ابن البكري**. ورد على أهل البدع جميعهم من الفلاسفة والمتكلمين كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة. وذكر رحمه الله تعالى أن هؤلاء كلهم وإن كثرت أبحاثهم ومصنفاتهم فما منهم من يعرف ما دلت عليه كلمة الاخلاص (لا إله إلا الله) فلم يعرفوا التوحيد الذي أثبتته ولا الشرك الذي نفته. هذا معنى كلامه.

ولتلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان أنواع التوحيد والرد على أهل البدع

(*) عن الجواب عن أسئلة في: **الاسم والقضاء والقدر**، لعبد الرحمن بن حسن بن عبد الوهاب في **مجموعة التوحيد**، ١٦٦.

المصنفات الكثيرة المفيدة. فمن أحسنها **إغاثة اللهفان**، و**كتاب الصواعق المرسلة، في الرد على الجهمية والمعطلة**. وللحافظ ابن عبد الهادي **الصارم المنكي في الرد على السبكي** ولهم أصحاب كثير أخذوا عنهم.

فلما طال الأمد بعدهم صارت كتبهم في أيدي أناس جهلة، وفي خزائن الكتب الموقوفة فلم يلتفتوا إليها، فرجعوا إلى ما كان عليه من قبله ممن مضى من المبتدعة، وكثر الشرك في القرى والأمصار، وصاروا لا يعرفون من التوحيد إلا ما تدعيه الأشاعرة من تأويل صفات الرب والإلحاد فيها. فصاروا كذلك حتى نسي العلم وعم الشرك والبدع إلى منتصف القرن الثاني عشر، فإنه لا يعرف إذ ذاك عالم أنكر شركاً أو بدعة مما صار في آخر هذه الأمة.

فشرح الله صدر شيخنا فضلاً من الله تعالى ونعمة عظيمة منَّ بها تعالى في آخر هذا الزمان فعرف من الحق ما عرف شيخ الاسلام ابن تيمية وأصحابه بتدبره الآيات المحكمات وصحيح البخاري وصحيح مسلم والسنن والمسانيد والآثار ومعرفته ما كان عليه رسول الله ﷺ والتابعون وأتباعهم وما عليه سلف الأمة وأئمتها والأئمة من أهل الحديث والتفسير والفقهاء، كالائمة الأربعة ومن أخذ عنهم، فتبين له التوحيد وما ينافيه والسنة وما يناقضها، فدعا الناس من أهل قريته وما قرب منها أن يتركوا عبادة أرباب القبور والطواغيت وعبادة الأشجار والأحجار والذبح للجن ونحو ذلك وكل هذا قد وقع في قرى نجد وغيرها حتى البوادي.

فلما أنكر ذلك كرهوا ذلك منه، وطرده أهل قريته عنها، وهي حريملا، وصار في العينية يدعو إلى دين الإسلام، وينهى عن الشرك وعبادة الأوثان. وقبل ذلك طائفة منهم ومن أهل الدرعية. ثم بعد ذلك ضاق نطاق أمير العينية لما رآه قد أنكر قوله الخلق الكثير والجم الغفير، وقد نصب له العداوة أهل القرى والأمصار والبادي والحاضر، فأمره أن ينتقل من بلده عنه، وصار في الدرعية عند محمد بن سعود وأولاده وإخوانه وبعض الأعيان من جماعته. فصار لهم قبول لهذه الدعوة، فصبروا على عداوة الناس قريبهم وبعيدهم وكلٌ قصدهم بالحرب، فثبتهم الله تعالى على قلتهم وكثرة من خالفهم، وقتل من قتل من أعيانهم. فصبروا وصارت الحرب بينهم سجالاً والله تعالى يحميهم ويقوي قلوبهم. وما جرى بينهم وبين عدوهم مذكور في التاريخ. فأظهر الله هذا الدين في نجد والبادية حتى لم يكن فيهم من ينازع ويجادل. لأن الله تعالى أبطل كل شبهة بما أبداه

هذا الشيخ ببيانه ومصنفاته التي صارت في أيدي المسلمين وانتشرت دعوته في الأمصار وقبلها القليل منهم ممن له التفات إلى ما ينفعه بخلاف من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله وهم الأكثرون. فلله الحمد على هذه النعمة العظيمة، فيا سعادة من هدي إلى معرفة حقيقة دين الاسلام واتبعه.

* * *

وكان بدمشق كثير من هذه الأنصاب، فيسر الله تعالى كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب الله الموحدين، ومراده بذلك الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى. فإنه هدم مواضع كثيرة بدمشق مما يعبده العامة من دون الله، وينذرون له، ويقولون إنه يقبل النذر أي يقبل العبادة، وذلك لأن النذر عبادة لله قال تعالى ﴿يوفون بالنذر﴾. وقال ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر﴾.

فإذا عرفت أن النذر عبادة وصرفته لغير الله فقد أشركت في عبادة الله غيره، وقد أقام الله تعالى في زماننا هذا وهو آخر القرن الثاني عشر من الهجرة النبوية من بعث الله به دين الاسلام وإخلاص العبادة لله وحده بعد اندراسه، وهو الشيخ الإمام العالم، ذو الفضل والمكارم والأخلاق السنية، والأعمال المرضية السنية، محيي السنة النبوية، وقامع البدعة الشركية، محمد بن عبد الوهاب، أسكنه الله الجنة التي هي أحسن المآب، وبرد مضجعه وأجزل له الثواب. فنصر الله به الدين القويم، وبين بسببه صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأزال الله به الشرك وعبادة الأوثان من أرض نجد محل الكفر والطغيان، ويسر الله كسر تلك الأوثان على يده وأيدي أتباعه من الموحدين، وحزب الله المفلحين. وكان قبل ذلك في كل أرض وبلد من أرض نجد أوثان وأشجار تعبد من دون الله وينذر لها ويذبح لها القربان ويعظمونها أعظم من تعظيم الله، كقبر زيد بن الخطاب في الجبيلة وشجرة في قريوة من بلدة الدرعية وشجرة أخرى لأهل الطرفية وغار يقال له غار بنت الأمير في أسفل بلد الدرعية وقبر يقال له قبر المغربي. وأعظم من ذلك عبادتهم تاج وشمسان مع شهادتهم عليهم بالفجور. ولكن يزعمون أنهم أولياء لا تضرهم الذنوب ويهابونهم أعظم مما يهابون الله. ومنهم من يدعو الجن ويذبح لهم، وفي كل بلد من ذلك شيء عظيم. فأزال الله ذلك كله بشيخ الاسلام، وأقام الله به الحجة على أهل زمانه، وعرف التوحيد جميع عدوانه، وأقروا أنه دين الله ورسوله، وأن الذي هم عليه الشرك بالله،

ولم يزدهم ذلك إلا بغضاً له وعداوة، وسعوا في إزالته وعداوته بكل ممكن حسداً له لما أظهر الله الدين على يده، حتى أظهره الله عليهم ونصره ونصر أتباعه على من خذلهم وخالفهم، مع ضعفهم وقلة عددهم وقوة عدوهم وكثرتهم، وأدخل الله جميع أهل نجد في الاسلام ودانوا به واجتمعوا عليه حاضرتهم وباديتهم. فالحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله. ونسأل الله العظيم المنان أن يثبتنا على الاسلام وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا وأن يعيذنا من التفرق والاختلاف إنه على كل شيء قدير.

٣

في بعض مسائل من فروعه التي مشى فيها على غير مذهب الإمام أحمد وإلا فهو حنبلي المذهب بحسبها

١ ــ مسألة: مما أوجبه محمد بن عبد الوهاب عيناً الصلاة جماعة. ولم ينقل هذا من مذهب الإمام أحمد ولا غيره.

٢ ــ مسألة: مما أفتى به تحريم شرب التتن، ووضع له حداً في شرع: من ضربٍ قدر أربعين سوطاً أو أقل، ومن حلق لحيته ومن سبّ حسب ما يقتضي رأي القاضي من أحد هذه الثلاثة، وهذه بدعة ما حُكِيَتْ عن مذهب أحمد (رض) ولا عن غيره. نعم اختلف العلماء في شرب التتن فقال بعضهم حرام ولم يرتب له حداً بل زجراً ونصيحة. وقال جمهورهم بحليته إما مع الكراهة أو مطلقاً.

٣ ــ مسألة: وكان يوجب على الناس دفع زكاة أموالهم الباطنية كالنقود ومال التجارة إلى الإمام أي سلطان المسلمين، وهو يفرّقها لمستحقيها، وكان يأمر بالتجسّس عما عند الناس من الأموال الباطنة ليأخذ الإمام زكاتها قهراً منهم، مع أن هذا غير المعهود من مذهب أحمد بل المندوب فيه هو دفع زكاة الأموال الظاهرة خاصة للإمام ليصرفها لأهلها إذ هو أجدر بالتفحص؛ والأموال الظاهرة الحبوب المحصلة من الزروع والثمار الحاصلة كل عام من الأشجار والإبل والبقر والغنم المقتناة.

٤ ــ مسألة: وقد حكم بتحريم ذبيحة من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ وأحلّها أحمد بن حنبل وأصحابه اكتفاء بظاهر الإسلام، عملاً. وهو الحق.

فهرس الأعلام

أ

كتب صدرت للمؤلف

ابن خلدون وتاريخه، دار الطليعة، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٨١.
التراث بين السلطان والتاريخ، دار الطليعة، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٨٧.
العرب والبرابرة، رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٩١.
المنتخب من مدونات التراث: ابن تيمية، رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الأولى بيروت، ٢٠٠٠.
المنتخب من مدونات التراث: الماوردي، رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

عزيز العظمة

محمّد بن عبد الوهاب

انطلقت الحركة الوهابية مسارا متعرجا، وهي لم تنجح لأن النجاح كان مقدرا لها في اللوح المحفوظ، بل لأن التاريخ يسّر لها سبل النجاح بشخصية استثنائية هي عبد العزيز بن سعود مؤسس المملكة العربية السعودية. في هذا الكتاب تبدو نصوص محمد بن عبد الوهاب في مضمونها المسرفة الأصولية، المتشددة والضيقة الاطلاع باجتهادها تمارين كتابية تعكس بيئة هامشية بعيدة عن التمدن ومنقطعة عن التراث الفكري للإسلام.

ويقدم لنا عزيز العظمة كتابات ابن عبد الوهاب انطلاقا من مفارقة أنه كتب ونشط سياسيا في عصر شهدت فيه الحداثة فكرا وعصورا وبدأت تستمكن سياسيا واجتماعيا، عصر الثورة الفرنسية وبوادر التحديث متمظهرة في ديار الدولة العثمانية. لكن محمد بن عبد الوهاب اكتفى بمعارف العصر الوسيط كالكتاب المجسطي لبطليموس، في وقت كانت الثورة العلمية قد تأسست على صورة ثابتة.






1855134217